عبد اللطيف أطيمش

بدر شاكر السيّاب

في أيامه الأخيرة





ذكريات شخصية

Jadawel جداول


مكتبة
الفكر الجديد

عبد اللطيف أطيمش

بدر شاكر السيّاب
في أيامه الأخيرة

ذكريات شخصية

Jadawel جداول



الكتاب: **بدر شاكر السيّاب في أيامه الأخيرة.. ذكريات شخصية**

المؤلف: **عبد اللطيف أطيمش**

جداول

للنشر والترجمة والتوزيع

رأس بيروت - شارع كراكاس - بناية البركة - الطابق الأول

هاتف: 00961 1 746638 - فاكس: 00961 1 746637

ص.ب: 5558 - 13 شوران - بيروت - لبنان

e-mail: d.jadawel@gmail.com

www.jadawel.net

الطبعة الأولى

تشرين الأول/أكتوبر 2015

ISBN 978-614-418-269-7

طبع في لبنان

Copyright © Jadawel S.A.R.L.

Caracas Str. - Al-Barakah Bldg.

P.O.Box: 5558-13 Shouran

Beirut - Lebanon

First Published 2015 Beirut

تصميم الغلاف: محمد ج. إبراهيم



المحتويات




مكتبة
الفكر الجديد

«إن مُــتُّ يــا وطنـــي،
فقبرٌ فـي مقـابـرك الكئيبـهْ
أقصى مُنـــاي،
وإن سلـــمتُ..،
فإنّ كـوخًا في الحقـولْ
هـو ما أريـدُ مـن الـحيـاة»

بدر شاكر السيّاب




مكتبة
الفكر الجديد

إهداء

إلى الشاعر «علي السبتي» الذي تحمّل، بكرم وشجاعة، محنة «السيّاب»، وحمل جثمانه من الكويت إلى مقبرة البصرة.

وإلى روح «السيّاب»، وأرواح كل المبدعين الشرفاء الذين رحلوا، وهم يهتفون للحرية، ويقارعون الشر والطغيان في العالم.

عبد اللطيف أطيمش




مكتبة
الفكر الجديد

مقدمة

لعلّها مصادفة أدبية طيّبة، أن يتزامن صدور هذا الكتاب عن بدر شاكر السيّاب، مع المبادرة التي أطلقها اتحاد الأدباء العرب في إمارة أبو ظبي في أن يكون عام 2014، عام الاحتفاء بمرور خمسين عامًا على رحيل هذا الشاعر الكبير.

إن المكانة الأدبية الرفيعة التي يحتلها «السيّاب»، عربيًّا وعالميًّا، تدعونا إلى أن نستعيد الدور الريادي الذي قام به من أجل تطوير الحركة الشعرية العربية، وفتح الآفاق الواسعة أمام الشِّعر العربي الحديث ليحتل مكانه المرموق على خارطة الشِّعر العالمي.

إننا نأمل ألّا تكون مبادرة اتحاد الأدباء العرب هذه مقتصرة على تذكُّر السيّاب وحده، بل أن تكون أيضًا بادرة من أجل تذكُّر المبدعين العرب الآخرين، والاحتفاء بمنجزهم الأدبي، وجعل ذلك تقليدًا أدبيًّا سنويًّا نكرّمهم فيه، ونلفت الانتباه إلى ضرورة دراسة أعمالهم، بروح جديدة معاصرة، وإعادة طبع نتاجهم الأدبي وتعريف الأجيال الجديدة بمكانتهم الثقافية.

إن هذه المبادرة، يمكن أن تكون أيضًا، فرصة سانحة بشكل خاص، للفت الانتباه إلى أهمية إبداع «السيّاب» وإعادة قراءته من جديد، بعيون معاصرة فاحصة، تكشف عن العناصر الغنية والعميقة لتجربته الفنية



والشعرية، وتدرس الدوافع الخفية التي كانت تحرِّك وجدانه وتثير مكامن الشِّعر المتوهج في أعماق نفسه.

إن معظم من كتبوا عن «السيّاب» لم يستوعبوا للأسف، جوهر أحاسيسه السايكولوجية، وروافد إبداعه الحقيقية، التي جعلته في مواجهة دائمة مع واقعه المزري، من أجل معتقداته ومبادئه الشخصية. فقد ظل هؤلاء الكتّاب ومعظمهم غير مؤهلين لهذه المهمة، يحومون حول الظواهر الشكلية الخاطفة والمكرورة، التي لا تكشف عن شيء، سواءٌ في أبعاد قصائده، أو في مسار تجربته الحياتية. لذا لا بد، إذن، من دراسة شِعر «السيّاب» من خلال منظور نقدي معاصر، يعتمد على أحدث المكتشفات في علم النفس، وعلم الاجتماع والدراسات الإنثروبولوجية الحديثة. وأن يكون ذلك كله على أيدي نقّاد متخصصين في الشِّعر وحده، لا على أيدي نقّاد «عموميين» ينقدون كل شيء، ويخوضون، من دون معرفة، في كل الأجناس والفنون الأدبية من دون أن تعنيهم قواعد النقد أو أساليب الكتابة أو جوهرها، ومن دون تمييز بين لون أدبي وآخر.

وفي غياب النقد الأدبي الجاد، وانحسار القيم الأدبية الرصينة تجرّأ كثير من الصحفيين وكتّاب المقالات اليومية الذين لبسوا لبوس النقّاد، تجرأوا، للأسف، على نقد شِعر «السيّاب» وراحوا «يحلّلون وينظّرون» لقصائده بكتابات متهالكة يسمّونها «نقدًا». وهم، في الحقيقة، لا يفقهون شيئًا عن الشِّعر ونقده، ولا دراية لهم بمدارس النقد الأدبي أو التراث الشِّعري العربي.

لا بد من أن يكون هناك تخصُّص في النقد، بدلًا من النقد العام الشامل. لماذا لا يكون عندنا نقّاد متخصِّصون في الشِّعر وحده، وآخرون في الرواية،



وآخرون في القصة والمسرح وهكذا في كل جنس من الأجناس الأدبية، مثلما هو معروف في الآداب الأجنبية؟

فالشِّعر، على سبيل المثال، حظي بعناية خاصة في الأدب الإنكليزي والأدب الأميركي، فصار له نقّاد متخصصون اقتصرت أعمالهم ودراساتهم النقدية على كل ما يتعلق بالشِّعر وحده، من دون غيره. هذا التخصُّص في النقد أنتج أعمالًا نقدية باهرة، أصبحت مراجع يعتمد بها في الآداب العالمية، في موضوع الشِّعر ومدارسه، وأغراضه الفنية. ففي بريطانيا مثلًا، عرف الأدب الإنكليزي ناقدين متخصّصين في الشِّعر، هما «وليم إمبسون **William Empson** المتخصِّص في الشِّعر الحديث، والذي عرفه الأدباء والمثقفون العرب من خلال كتابه المهم الذي أسس للحداثة الشعرية، في القرن الماضي، وهو «سبعة أنماط من الغموض» **Seven Types of Ambiguity**.

أما الناقد الثاني فهو «ولسن نايت» **Wilson Knight** المتخصِّص في الدراما الشعرية الشكسبيرية، وصاحب كتاب «دولاب النار **The Weel of Fire**» الذي يُعدّ مرجعًا نقديًّا متميزًا في هذا الباب.

وفي أميركا، برز ناقدان رائدان في موضوعات الشِّعر والنظريات الشِّعرية المختلفة. الأول: هو الناقد «أبرامز **M. H. Abrams**» صاحب كتاب «المرآة والمصباح **The Mirror and the Lamp** وهو متخصص في الرومانتيكية كمذهب شِعري عام، ونظرية الأدب وتأثيرها في الحركات الشعرية.

والناقد الثاني، هو: «كلينث بروكس **Cleanth Brooks**» وهو متخصِّص بالشكل في الشِّعر الإنكليزي، وتطوُّر القصيدة من خلال النمو الداخلي لصناعتها الفنية.



وفي أدبنا العربي القديم، كما هو معروف، كان هناك نقّاد متخصِّصون في نقد الشِّعر منذ بداياته الأولى في العصر الجاهلي، حين كان الشِّعر هو الجنس الأدبي الوحيد السائد في البيئة العربية. فمنذ بدء تاريخ النقد العربي، وقبل عهود التدوين، كان النقد ملازمًا للشِّعر، وتابعًا له، وكانت هذه هي وظيفته الأدبية التي لا غنى للشِّعر عنها، معتمدًا على عنصرين: المشافهة الخطابية والذوق الانطباعي.

في العصر الجاهلي بدأ النقد «شفاهيًّا» معتمدًا على الذائقة الفردية الانطباعية، وعلى الخبرة والمراس في سماع الشِّعر والنظر في صناعته.

وحين نصبت أول خيمة في العصر الجاهلي، للنابغة الذبياني والأعشى الكبير، للحكم على أجوَد القصائد وأفضل الشعراء، بدأت أولى مراحل نقد الشِّعر على أُسس وقواعد منظمة أثبت من خلالها النقد سلطته الأدبية التي اعترف بها وخضع لها الشعراء وجمهور الشِّعر من المستمعين على حدٍّ سواء. وفي ضوء هذه القواعد، غير المكتوبة، اختيرت المعلقات، وعلّقت على أستار الكعبة، كونها أفضل النماذج الشعرية التي أقرَّها النقد واعترف بها الجمهور، ومن خلالها ظهرت أولى الطبقات الشعرية لتصنيف الشعراء، والتي أُطلق عليها «طبقة فحول الشعراء».

ومنذ بداية التدوين في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجري، برز نقّاد الشِّعر الأوائل المتخصِّصون في هذا الباب، أمثال: قدامة بن جعفر، ابن قتيبة، الآمدي، أبو هلال العسكري، الجرجاني، الجمحي، ابن جني، وانتهاء بالقرطاجني. ومن هنا إذن، يظهر أن لنا تاريخًا طويلًا في نقد الشِّعر، وأن لنا نقادًا متخصِّصين أرسوا لنا عبر امتداد العصور الإسلامية قواعد وأسسًا رصينة متقدمة لهذا الفن الشِّعري الذي هو أقدم الفنون الأدبية في تاريخ الأدب العربي.



فما أحرانا، ونحن نستعيد هذه الحقائق الأدبية المعروفة في تاريخنا الشِّعري والنقدي القديم، أن نعطي اليوم، لشِعرنا حقّه، وأن نسلّمه إلى من يعرف جوهره وحقيقة صناعته، ليكشف لنا أسراره ومكامن الجمال والإبداع فيه.

وبهذه المناسبة، علينا أن نعيد اكتشاف مكامن الجمال والإبداع في شِعر السيّاب، وندعو النقّاد الحقيقيين المنصرفين لشؤون الشِّعر وحده، إلى إعادة دراسة هذا الشاعر الرائد، وإبراز دوره الطليعي في حركة الشِّعر العربي المعاصر.

Hounslow - London




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الأول

ظروف الشِّعر وأمسية «العالية»

هذه الذكريات الشخصية عن الشاعر الرائد بدر شاكر السيّاب تحاول رسم بعض الصوَر الخاصة واللقطات، التي سجلتها الذاكرة عنه في أوقات وأماكن مختلفة. هي انطباعات كانت في الأصل مجموعة أفكار في أوراق مبعثرة، وقصاصات من مفكرات يومية سجلتها قبل أكثر من خمسين عامًا، لتكون جزءًا من مادة أدبية لسيرة ذاتية ظلّت مؤجّلة سنة بعد أخرى، أملًا في تدوينها عن طفولتي وحياتي مع الأدب والأدباء، والناس والأصدقاء الذين عرفتهم في أماكن شتّى من العالم.

وقد حرصت أن أنقل معي، أينما ذهبت، تلك المذكرات اليومية المدوَّنة في جذاذات، أصبحت صفراء ومهترئة لطول العهد، لأنها تشكِّل المادة الأساسية للأحاسيس المتراكمة عن ذكريات الماضي. أما القسم الأكبر منها فهو مسجل في الذاكرة التي على الرغم ممّا أصابها من الوهن والتشتت بمرور السنين وتقدُّم العمر، ظلت، لحسن الحظ، محتفظة بشيء من وهجها وقدرتها على تخزين ماضي الأحداث والأسماء وتفاصيل المشاهد وأماكن الذكريات.

حين عدت إلى هذه المذكرات بعد هذه السنين كلّها، وجدتها مازالت



حيّة، محتفظة بحرارة ساعتها وعفويتها، فلم أحاول إفسادها بالتغيير أو الإضافة وحاولت قدر الإمكان إبقاءها ضمن مسارها الطبيعي، من دون زخرفة أدبية مفتعلة تسلب منها صدق لحظتها التاريخية وعفويتها الإنسانية.

ولا بد من أن اعترف بأن هذه الذكريات الشخصية صارت لطول السنين التي حملتها معي، تشكل عبئًا ثقيلًا على نفسي لا بد من التخلص منه عبر الكتابة والتدوين. وأنا بذلك لا أهدف إلى إقناع أحد بما أكتب من آراء أو أرتجي من أحد أن يوافقني على ما أقول، فأنا مثلما قال سومرست موم «مجرّد تمامًا من الغريزة التعليمية» على الرغم من حياتي المهنية الطويلة في التعليم في الجامعات.

ومع هذا، وبعد أكثر من نصف قرن من الزمان، فأنا أعتذر للقارئ إن وقع في هذه الذكريات شيء من الالتباس في الأسماء أو التواريخ أو تسلسل الأحداث، لأنني في الحقيقة أكتب بشكل عام، من الذاكرة عن عالم بعيد منسي لا يمكن استعادته، وعن حياة عبرت واختفت ولم يبق في الذاكرة المتعبة، إلّا القليل من معالمها وناسها.

الناس الذين أكتب عنهم، تعرفت إليهم في ظروف عاصفة، وجمعتني مع بعضهم صداقة حميمة، شكّلت بمرور السنين، جزءًا حيًّا من حياتي وذكرياتي، بعضهم غيّبهم الموت المبكر، وبعضهم لا أعرف مصائرهم ولا أعرف أين هم الآن وأين قذفت بهم الأيام، لكنهم تركوا حسرة دائمة وعميقة في القلب، تركوا أمنية مستحيلة في أن أراهم ثانية، وأستعيد معهم ذكرى ذلك العهد الجميل، ألا سقيًا لتلك الأيام، ورعيًا لذاك الزمن الذي لن يعود.



في هذه الذكريات عن «السيّاب»، أحاول أن أسجل ما بقي منه في ذاكرتي، منذ لقائي الأول به في بغداد، وحتى لقائي الأخير به في الكويت.

إن ما أسجله عنه ليس دراسة أدبية منمّقة في شِعره أو سردًا لوقائع حياته الأليمة، (فقد كُتِب عن ذلك الكثير الكثير) بل هي لقطات حيّة حاولت تسجيلها، وجهدت أن أجعلها بعيدة من المبالغة والتزويق وإصدار الأحكام الشخصية التي لا حقَّ لي أصلًا في إطلاقها. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن أهم محفزاتي على كتابة هذه الذكريات هو إلحاح بعض أصدقائي الأدباء وتشجيعهم، وعلى رأسهم الشاعر أمجد ناصر الذي كلّما تذكرنا السيّاب يسألني: «متى يحين وقت الكتابة؟» فكان دائمًا يؤكد على ضرورة تدوين هذه الشهادة التاريخية ونشرها قبل فوات الأوان، نظرًا إلى صلتها الأدبية والتاريخية بمرحلة شعرية مهمة في تاريخ العراق الثقافي، ناهيك عن صلتها الخاصة بحياة السيّاب في أيامه الأخيرة ورحيله بعيدًا من وطنه.

ولهذا، حين أزمعتُ الكتابة، حاولتُ جاهدًا أن أكتب ما أستطيعه، وليس ما أريده، فما أصعب المعادلة بين اليقين والممكن أو بين الرغبة الذاتية والقدرة على مجابهة الواقع.

وللأمانة التاريخية، لا بد من أن أشير إلى أنني لست من جيل السيّاب (على الرغم من اعتراضي على مسألة «الأجيال» وعلى هذا المصطلح المضلّل) مع أن صديقي الشاعر بلند الحيدري قرّبني إليه، بسخاء ومحبة، حين كتب في جريدة «المساء» الجزائرية عام 1984 قائلًا: «على مرمى ذراع من تجربة بدر شاكر السيّاب وزملائه في الحداثة الشعرية العربية غب الأربعينيات من هذا القرن ولدت قصيدة الشاعر عبد اللطيف



أطيمش فكان لها أن سعت سعي قصائدهم في تعزيز وتوطيد مصطلح شِعري جديد، يخرج بجديدهم لغة ومضمونًا».

والحقيقة أن تجربتي الشعرية المتواضعة أبعد زمنيًّا من مرمى تلك الذراع، وأنها لم تكن إلّا امتدادًا طبيعيًّا لما تعلّمناه من تلك المدرسة الشعرية الرائدة التي أرساها السيّاب ونازك والبياتي والحيدري.

هذه المدرسة هي التي أرخّ لها البياتي في الحلقة الأخيرة من مذكراته التي نشرها في جريدة «الشرق الأوسط» اللندنية عام 1995، حين قال: «في تلك المرحلة اعتُبرت محاولاتنا أنا والسيّاب ونازك تأسيسًا للشِّعر العربي أولًا، ووضع قاعدة صلبة له، ومنها انطلق جميع الشعراء خارجين من معطف هذه الحركة، وتنوعت أساليبهم وطُرُقهم وتجاربهم، وأصبح لكل واحد منهم شخصية متميزة».

كانت الأقدار وظروف الشِّعر هي التي قادتني إلى التعرف على السيّاب، لأول مرة، في دار المعلمين العالية، وأنا طالب في جامعة بغداد عام 1957. والأقدار ذاتها هي التي ساقتني ثانية لكي أراه، ولآخر مرة، وأشهد أيامه الأخيرة، راقدًا في المستشفى الأميري بالكويت. فقد وصل شبحًا وهيكلًا عظميًّا لا يقوى على المشي ولا يتحرك إلّا بصعوبة، مصابًا بأمراض شتّى، لا قِبَل لجسمه النحيل الضعيف بتحملّها، فأُدخل إلى المستشفى على الفور، ربما كنت أنا، والشاعر محمد الفايز، من بين القلّة من الشعراء الذين شهدوا مأساة موته وعذابه ومحنته في غربته.

* * *

كان ذلك في أواخر عام 1957، حين دعونا السيّاب، أنا وزملائي في اللجنة الثقافية بدار المعلمين العالية، لإقامة أمسية شعرية، وكانت تلك



بمبادرة من أستاذنا الدكتور علي جواد الطاهر، رئيس اللجنة الثقافية في الكلية.

كان معي من زملاء الدراسة وأعضاء اللجنة الثقافية، مجموعة من الأدباء الناشئين، صاروا بعد ذلك أسماء معروفة في الساحة الثقافية العراقية، أذكر منهم صلاح نيازي، فاضل العزاوي، جليل كمال الدين، ياسينَ طه حافظ، علي القاسمي، باسم عبد الحميد حمودي، وأنيس زكي حسن، الذي كان أول من ترجم كتاب «اللامنتمي» للكاتب البريطاني الشهير «كولن ولسون» Colin Wilson الذي صدر في لندن عام 1956، والذي سرعان ما التقطه «أنيس»، وهو المتتبع للجديد في الثقافة الأجنبية وأسرع في ترجمته حيث طبعته له «دار العلم للملايين» في بيروت، وهو مازال طالبًا في الكلية، ليكون يومها حدثًا ثقافيًّا مدويًّا في الأوساط الثقافية في العالم العربي كلّه.

أذكر، بهذه المناسبة، أن الكاتب المصري المعروف «أنيس منصور» كتب يومها مقالًا في «الأهرام» أشاد فيه بالترجمة المدهشة للكتاب، وعُدَّ مترجمه عبقرية نادرة في عالم الترجمة، نظرًا إلى صغر سنه وكذلك إلى براعة اختياره لعنوان «اللامنتمي» ترجمة لعنوانه بالإنكليزية (The Outsider) التي عدّها لقطة مثيرة لعنوان هذا الكتاب الذي انتشر في العالم وترجم إلى عدة لغات على الرغم من أن مؤلفه لم يتجاوز يومها الرابعة والعشرين من عمره، وقد أرجع كثير من نقّاد الأدب أسباب رواج هذا الكتاب وانتشاره بين المثقفين والأدباء في العالم، إلى طغيان موجة الفلسفة الوجودية في الخمسينيات من القرن الماضي، وتفشّي ظاهرة الغضب واليأس بين شباب العالم، وخصوصًا بعد مآسي الحرب العالمية



الثانية التي قادت إلى شيوع مظاهر التمرد والتشاؤم والخيبة في دعوى القيم الزائفة التي جاءت بها الحضارة المعاصرة.

حين وصل «اللامنتمي» إلى بغداد، صار حديث الأندية ومجالس الأدب وأقبل على قراءته المثقفون والأدباء، بشغف لا مثيل له وكتبت عنه مقالات كثيرة، في الصحافة العراقية. حتى إن بدر شاكر السيّاب، في أثناء فترة عمله مترجمًا في جريدة «الشعب» البغدادية، كتب مقالًا، عبَّر فيه عن إعجابه بالكتاب، وأشاد بقدرة مترجمه أنيس زكي حسن، وبراعته في نقل هذا الكتاب إلى العربية، وعدّه من أعظم الكتب التي صدرت في القرن العشرين.

لقد استفضتُ في الحديث عن كتاب «اللامنتمي» بسبب ما نقلته الصحافة البريطانية ووكالات الأنباء العالمية هذا الأسبوع (كانون الأول/ ديسمبر 2013) عن وفاة «كولن ولسون» الذي عاش في سنينه الأخيرة في عزلة، بعد أن تجاهلته الأوساط الثقافية والأكاديمية في بريطانيا خلال الفترة الأخيرة، متهمة إياه بالتطرف في أفكاره واعتماده على تجميع آراء المؤلفين الآخرين والإفادة منها في مؤلفاته.

مات «كولن ولسون» في مسقط رأسه، في شمال شرقي بريطانيا بعد أن ترك مؤلفات جمّة، أشهرها بعد «اللامنتمي»: «ضياع في سوهو» و«رجل بلا ظل» و«أصول الدافع الجنسي».

أعود إلى السيّاب الذي لبّى دعوتنا بكل ترحاب، وقال إنها فرصة له لتذكّر أيامه في الكلية. جاء بصحبة صديقيه الشاعرين محمود الريفي وراضي مهدي السعيد، صاحب ديوان «رياح الدروب» الذي كان صادرًا لتوّه بمقدمة لبدر شاكر السيّاب.



استقبلناه في باب الكلية، مرحِّبين به أنا وزملائي أعضاء اللجنة الثقافية وفي مقدمهم حميد الهيتي الذي كان يعمل أيضًا مذيعًا في إذاعة بغداد، وصار بعد ذلك عميدًا لكلية الآداب في الجامعة المستنصرية، بالإضافة إلى عدد من الطلبة والطالبات.

كان فرحًا بهذا الاستقبال، وبدا عليه شيء من الخجل والارتباك، ربما لأنه لم يكن يتوقع هذه الحفاوة من الطلبة ومحبي الشِّعر من الجيل الجديد. وحين قدَّمني له صديقي الشاعر راضي مهدي السعيد، ذاكرًا اسمي قال السيّاب «أنا أذكر هذا الاسم» فدهشت وقلت له: «كيف؟» قال: «من خلال الريبورتاج الذي نشرته في الأسبوع الماضي جريدة «البلاد» عن شعراء دار المعلمين العالية.

ثم أثنى على القصائد المختارة (ربما من باب المجاملة فهو جم الأدب وشديد اللياقة). تذكرت ساعتها ذلك التحقيق الأدبي الذي أعدَّه الكاتب والصحافي أحمد فياض المفرجي لجريدة «البلاد» التي كان يصدرها (رفائيل بطي) عن الشعراء الشباب في «العالية» مع صور ونماذج من القصائد. ثم سألني: هل كنت تنشر في جريدة البلاد؟ قلت: نعم، بعض القصائد كنتُ أرسلها من «الناصرية» وأنا في الثانوية، قال: أتذكرك أيضًا من تلك القصائد، فأيقنت أن السيّاب كان متابعًا لما يدور في الصحافة الأدبية، لا يفوته شيء من أخبارها وممّا تنشره من شِعر وأدب وخصوصًا ما يتعلق منها بالنشاط الثقافي في دار المعلمين العالية آنذاك، فهي مكان ذكرياته وبداية تفتّحه الأدبي.

مازلت أذكر تلك اللحظة التي اعتلى السيّاب فيها المنصة مرتديًا «بذلة» رمادية فضفاضة لم تكن مناسبة قطُّ لجسمه النحيل، أخرج مجموعة



أوراق من جيبه الأيمن الكبير، بدأ يرتب صفحاتها، وبدلًا من أن يضعها فوق الطاولة الخشبية أمامه ويقرأ بارتياح، فضّل أن يمسك الأوراق بيديه تاركًا الطاولة، متقدمًا قليلًا على خشبة المسرح، وبدأ يقرأ وهو واقف على الرغم من الألم الذي كان باديًا في ركبتيه والذي تطوَّر لاحقًا ربما بسبب إصابته بداء السكري.

ألقى السيّاب مجموعة من قصائده وعلى رأسها قصيدته المشهورة عن «بور سعيد» وهي آخر قصائده الطويلة التي كتبها عام 1956 بعد العدوان الثلاثي على مصر، والتي مطلعها:

يـا حاصد النار من أشـلاء قتلانـــا

منك الضحايـا وإن كانـوا ضحايـانـا

وكانت هذه القصيدة بداية تحوّله نحو الاتجاه القومي بعد انفصاله عن الحزب الشيوعي.

وكان من بين أبياتها بيت يمدح فيه «جمال عبد الناصر»، حيث يقول:

«يـا أمـة تصنع الأقـدار من دمهـا

لا تيــأسي إن عبــد الناصـر الـقـدرُ»

حيث كان عبد الناصر يومها في أوج مجده وشهرته بعد تأميم قناة السويس ونضاله ضد الأحلاف الأجنبية، بطلًا للقومية العربية وسط احتدام الشعور الوطني في العالم العربي، ونهوض الحركات التحررية ضد الاستعمار، وخصوصًا في العراق، أيام حلف بغداد، ونوري السعيد، وتشكيل الجبهة الوطنية التي ضمّت الأحزاب الوطنية العراقية كافة.

لاحظت أن السيّاب كان يتحرك حول المنصّة ويمشي بصعوبة ويغالب



ألمًا في رجليه، لكنّه كان متماسكًا وواثقًا غير متهيّب من الجمهور، يقرأ قصائده بانفعال صادق في قاعة مكتظّة بالحاضرين والمدعوين ومحبي الشِّعر.

كان صوته واهنًا لكنّه عميق تحسُّ فيه حرارة المشاعر النّابعة من صميم الوجدان، استمر يقرأ بطريقة مسرحية، ربما بدت غريبة وغير مألوفة للحاضرين الذين لم يعتادوا رؤية شاعر يتمايل يمينًا وشمالًا.. يروح ويجيء وسط خشبة المسرح، يمشي ويؤشر بيديه الممدودتين، رافعًا رأسه يديره من جهة إلى أخرى، كان يبدو كما لو كان هو وشِعره فقط، ناسيًا الجمهور أو كأنّه خارج المكان والزمان. لاحظت بعض الطلبة يتهامسون مستغربين وربما يتغامزون بضحكة مكتومة، لكنّهم كانوا يشعرون بأنهم يسمعون شِعرًا عظيمًا، وأنّ داخل هذا الكيان الناحل الذي أمامهم لا بد من أن تكون موهبة شعرية كبيرة.

ذكّرني مشهد السيّاب هذا، بمشهد الشاعر الروسي المشاكس الشهير «يوجين يفتشينكو» وهو يلقي قصائده في جامعة الجزائر عام 1981، حين جاء بدعوة من اتحاد الكتّاب الجزائريين، سألته يومها: «لماذا تستخدم هذه الطريقة التمثيلية الغريبة في الإلقاء؟ لماذا لا تقرأ بهدوء، فالشِّعر هدوء الروح ومناجاة الوجدان؟».

فأجاب: «نحن الروس لا نلقي الشِّعر، بل نمثِّله مثل شعراء الإغريق القدامى، فالشِّعر مسرح تراجيدي، هكذا علَّمنا «مايكوفسكي» الذي كان لا يمثل فقط حين يقرأ قصائده بل كان يرقص على المسرح، وأنا أرقص كذلك أحيانًا حين أقرأ أشعاري. قاعتكم هذه صغيرة فأنا اعتدت قراءة أشعاري في الميادين العامة وملاعب الرياضة حيث تتسع لمئات الآلاف



من العمال والطلبة لسماع قصائدي. وكنت أمثّل شِعري أمامهم وأنزل أحيانًا من المنصة وأمشي بينهم وأنا أنشد أشعاري».

وفعلًا كان «يفتشينكو» ينزل مرات عدة من المنصة ويمشي بين ممرات القاعة بين الطلبة المستمعين، وهو يلوّح بيديه ويتمايل بجسمه الطويل الرشيق ويترنّم بصوت عال بقصائده التي يحفظها عن ظهر قلب.

حين انتهى السيّاب من القراءة، كان التعب باديًا عليه، يتصبّب عرقًا وما زال منفعلًا، فقد بذل جهدًا كبيرًا كي يحتفظ بتوازنه. كنت مشفقًا عليه وهو يتمايل على المنصّة، وكأنه شجرة آيلة للسقوط. ربما لم يكن الطلبة يستوعبون فهم تلك الصُّوَر الشِّعرية العميقة المتداخلة والكنايات المركّبة في ثنايا القصائد الحرّة الجديدة لكونها غير مألوفة لديهم أو هي فوق ما يسعفهم اطلاعهم المحدود على ماهية الشِّعر وأجوائه الداخلية، لكنهم من دون شك يحسون بأنهم استمعوا إلى شِعر ليس كالشِّعر، وإن خلف هذا الجسم المتهالك روحًا عبقرية قلّ نظيرها، فقد برز بجسمه النحيل أشبه بقصبة ريفية تهزّها ريح النخيل فتعزف أعذب الألحان.

كانت تلك الأمسية حدثًا ثقافيًّا وتاريخيًّا نادرًا، لم يتكرر طوال حياة السيّاب، فقد حضرها جمهور غفير من أدباء ومثقفي بغداد، وجمع من الطلبة الذين حضروا من كليات أخرى إلى جانب قسم من أساتذة الكلية (لم تحضر نازك الملائكة التي كانت مدرِّسة معيدة لمادة النقد الأدبي المقارن والعروض في الكلية نفسها، ولم تحضر الشاعرة عاتكة الخزرجي أستاذتي في قسم اللغة العربية).

في نهاية الأمسية تقدّم عميد الكلية الدكتور محمد ناصر وسلّم على السيّاب، وكذلك أساتذتي: الدكتور علي جواد الطاهر والدكتور الشاعر



عبد الرزاق محيي الدين والدكتور صفاء خلوصي، بالإضافة إلى بعض المدعوين. كان السيّاب يصافح الجميع ويسلّم عليهم بأدب جم وبشيء من الخجل الظاهر، وهما الصفتان اللتان تميزان شخصيته العامة وتربيته الريفية.

حين خرجنا من القاعة كان هناك جمع من الطلبة والطالبات ينتظرون السيّاب لتحيته والتعرف إليه. ازداد ارتباكه حين وجد نفسه محوطًا بهذا العدد الذي لم يكن يتوقّعه من كثرة الفتيات، بشكل خاص. إذ إن لدى السيّاب من المرأة خجلًا فطريًّا ولاسيما حين تكون قريبة منه، ربما كان يحبها بعيدة، حيث يحسن مناجاتها بالشِّعر، ومخاطبتها، وتستهويه مكاشفتها بعواطفه والتغزل بها، لكنها حين تكون قريبة منه فإنها تثير فيه الارتباك وقد تفقده أحيانًا قدراته البلاغية الكامنة في التجاوب، وحسن المخاطبة.

لاحظت فيه ذلك وهو يحاول بتواضع وحياء محاورة الطالبات اللواتي أقبلن عليه يسألنه عن الشِّعر الجديد، وبعضهن رومانسيات يسألنه بجرأة عن بعض قصائده الغزلية التي كانت شائعة بين الطلبة آنذاك، مثل قصيدته المعروفة التي مطلعها:

ديـــوان شعـرٍ كلـه غـــزلُ   بين العـــذارى بـــات ينتقـلُ

أدركت أن السيّاب بدأ يتعب والإعياء باد عليه بعد جهد الأمسية والأسئلة الكثيرة التي انهالت عليه من الطلبة، فالتفتُّ محاولًا تدارك الموقف قائلًا: أرجوكم.. الأستاذ بدر متعب ويحتاج إلى الراحة قليلًا في النادي. ارتاح للفكرة، وقال خذوني إلى النادي، فاصطحبناه أنا وحميد الهيتي ومحمود الريفي إلى نادي الكلية الذي كان يقع خارج المبنى،



في الجهة اليسرى وراء السد الترابي الذي يخترقه خط سكة حديد قطار البصرة ـ بغداد. في هذا المكان كادت تقع حادثة خطيرة تودِي بحياة السيّاب وحياتنا معه. لن أنسى تلك اللحظات المروّعة التي حدثت كلمح البصر، بل ستظل تلازمني ما حييت. فحين تركنا الطلبة وأخذنا السيّاب معنا متجهين نحو النادي، مشينا وهو يتوسطنا، لقد كان إلى يميني، وكنت ممسكًا بيده اليسرى وإلى يسار كل من حميد الهيتي ومحمود الريفي، كان يمشي ببطء وكنا نسنده، حيث كان يعاني من ألم في رجليه. كنا مستغرقين في الحديث عن الأمسية، وهو مستغرق بشيء من الانشراح عن ذكرياته في الكلية.

بدأنا نمشي متسلقين درجات السد الترابي، هادئين مبتسمين مقتربين من السكة الحديد، وإذا بالقطار يندفع نحونا بلحظة جنونية خاطفة. كان على مسافة أمتار قليلة، لا ندري من أين جاء كأنه بسرعة أسطورية خرج لنا من باطن الأرض من دون أن ننتبه إلى صوت عجلاته أو صافرة إنذاره التي ربما أطلقها كعادته ولم ننتبه لها.

كان هذا القطار يمرّ مرّة واحدة كل مساء في هذا الوقت قادمًا من البصرة متَّجهًا إلى وسط بغداد، ومن دون وعي مني بلحظة غريزية كمن يواجه الموت، جذبت السيّاب بقوة إلى الخلف، سحبته بشدة من يده النحيلة التي مازال يمسك بها يدي، تدحرجنا إلى الوراء وتدحرج أيضًا صاحباي، الريفي والهيتي، وسقطنا متكوِّمين تحت تراب السد. بعد لحظات التفتُّ إلى السيّاب بعد أن عبر القطار فوجدته ممتقع الوجه، مصفرّ الملامح، والتراب يعفّر وجهه، قلت له بقلق: أستاذ بدر هل أنت بخير؟ تمتم بصعوبة وهو يحدّق في وجهي بذهول: الحمد لله،، لقد أنقذت حياتي، شكرًا لك، قلت له: الله أنقذنا جميعًا.. ما حدث شيء لا



يصدّق، أقبل صاحباي على السيّاب ليطمئنا إليه، وصرنا نتساءل بذهول كيف حدث هذا؟ بعدها واصلنا سيرنا نحو النادي ونحن نسند السيّاب الذي كان يمشي بيننا بألم ظاهر.

عبرنا السد الترابي مرة أخرى ودخلنا النادي، اخترنا طاولة في الزاوية اليسرى وجلسنا منهكين، جلس السيّاب قبالتي، بدأ يهدأ ويلتقط أنفاسه، لاحظت بعض الغبار فوق شَعره وسترته حين سقط أرضًا، مددت يدي لأنفضه، لكنه رد بمزاح: لا عليك.. فهذا كما قال الشاعر: غبار المعارك. وضحكنا. أدركت حب المرح وربما خفّة الدم في شخصية السيّاب على الرغم من صعوبة الموقف، فقلت له مداعبًا: الحمد لله أن معركتك مع الأمسية انتهت بنجاح» فردّ مبتسمًا: إن معاركي لا تنتهي.. معاركي القادمة قد تكون هي الأصعب.

لم أسأله عن معاركه القادمة لكنّني فكرت في سرّي. تراه يقصد معاركه مع الحزب الشيوعي الذي بدأت خلافاته معه، وأدت به في ذلك الوقت إلى تغيير انتمائه السياسي وتبنّيه للنهج القومي ووقوف اليساريين ضده والذين لم يحضروا الأمسية؟

سألته ماذا يحب أن يشرب.. فقال: شاي بالحليب من دون سكر، قلت له: هل أطلب لك قطعة من «الكيك»؟ فقال: أنا ممنوع من أكل الحلويات بسبب السكري، فقلت له: كيف وضعك معه؟ قال: هو في بدايته كما يقول الطبيب، وأنا أواصل العلاج وملتزم بنصائحه. ذهبت لأجلب له الشاي بالحليب والقهوة لي ولصاحبيّ اللذين تركتهما يتحاوران معه حول ذكرياته في «العالية».

لمّا عدت وجدته محوطًا بطلبة من قسم اللغة العربية من محبي الأدب



جاؤوا يسألونه عن الشِّعر فكان ينصحهم قائلًا: عليكم بالتراث، ولا تنسوا الآداب الأجنبية. (كان السيّاب خريج قسم اللغة الإنكليزية فيَ العالية) انتهزت فرصة حديثه مع الطلبة وبدأت أتأمل ملامحه وهو يشرب الشاي ويتحدث، أتفرس في تفاصيل وجهه الطفولي الشاحب، وعينيه الغائرتين المتعبتين، بدا لي مهذبًا متواضعًا، لا يشعر جليسه بحرج معه، ودودًا وعلى جانب شديد من الحياء الذي يزيده وقارًا، يتحدث وهو مطرق في الغالب، يكثر من استعمال يديه حين يهمّ بشرح فكرة ما، وقد أثار انتباهي طول أصابعه المفرط، وهي تمسك بكوب الشاي، فقد بدت معروقة وبادية الزرقة بشكل ملحوظ. قلت في سرّي: أهذه هي الأصابع التي تكتب كل تلك القصائد المدهشة؟ وهو من جانب آخر عاطفي مع أفكاره يتحمس ذاتيًّا للدفاع عن خواطره. حين يحدثك ينظر إليك ويبتسم في وجهك، فتشعر نحوه بالألفة وتجده قريبًا من نفسك. حين تسأله لا يجيبك بسرعة، يفكر مليًّا فيما سيقول، وهذا جزء من الحذر والترقب في شخصيته، وربما انعكس هذا على أسلوبه المتأني في كتابة القصيدة التي يقلبها مليًّا ويتفحصها مرارًا قبل أن يدفع بها إلى النشر لأنه يخشى النقد، ويتوجس من رأي الآخرين. حين تنظر إليه وهو هادئ النفس، متطامن المشاعر، تشعر أنك أمام إنسان (خيّر) بكل ما تحمل الكلمة من معان، تمامًا مثلما كان يردد قول الشاعر: «كن خيرًا لا كاتبًا وحسيبًا» فتعطف عليه وتتعاطف معه فهو عميق البراءة، لا يمكن أن يؤذي أحدًا أو يقترف شرًّا. وقد كشفت الأحداث في السنوات اللاحقة أن هذه البراءة عند السيّاب، وربما الغفلة (غفلة المؤمن) كما يقال، هي التي جعلت منه ضحية سهلة لبعض من زملائه الشعراء الذين يحسدونه ويكيدون له ويغارون من موهبته الكبيرة.

فهو لم يعرف كيف يداور أو يتحايل، ولم يعرف حتى كيف يكشف



عن قدراته الشعرية الهائلة، أو يسوّق قصائده بحثًا عن الأضواء والشهرة كما يفعل الآخرون: بادر السيّاب بسؤالنا عن الأمسية، فهو بطبيعته شديد الحساسية إزاء شِعره ورأي الآخرين فيه، وهو أيضًا كثير التوجّس والخوف من وجود هؤلاء الآخرين، ويخشى النقد ولا يحتمل المجابهات لأنه إنسان مسالم، لكنه قد يثور ويفقد صوابه حين يشعر بالغبن أو ينتقص أحد من قيمته أو يستهين بقدراته الأدبية، فهو من هذا الجانب شديد الحساسية وعصبي المزاج.

خطر لي أن أسأله عن البيت الذي ورد في قصيدته عن «بور سعيد» ومدح فيه جمال عبد الناصر:

«يا أمة تصنع الأقدار من دمها

لا تيأسي إن عبد الناصر القدرُ»

قلت له: أنت حوّرت هذا البيت ووضعت اسم عبد الناصر بدل «سيف الدولة» الذي كان موجودًا أصلًا في القصيدة المنشورة التي قرأناها سابقًا، حيث كان سياقه: «لا تيأسي إن سيف الدولة القدر».. فقال: هذا صحيح، أنا تعمدت إدخال هذا التضمين كي يتماشى مع السياق.. قلت له: لماذا؟

قال: أنا تجاوبت مع مشاعر المستمعين وعواطفهم الوطنية والقومية في هذه الأوضاع. وكما تلاحظ أن الوضع السياسي الحالي يكاد يكون مشابهًا لأوضاع سيف الدولة الحمداني في صراعه مع الروم في القرن الرابع الهجري. كلاهما كان بطلًا قوميًا يحارب أعداء الأمة العربية. أنا أسمّي هذا النوع من الرجال (أبطالًا تراجيديين) لأنهم يحملون في دواخلهم تراجيديا الذات ومآسي الأمم ومصائرها.



ـ أوافقك على ذلك، لكن ملاحظتي كانت بخصوص أمانة النص الأدبي.

ـ أنا أفهم ما تعنيه، ولكن على الشاعر أيضًا أن يكون أمينًا على مشاعره ومشاعر أبناء شعبه ولا يضيّع فرصة لاستنهاض الطموح القومي، وهذا لا يضير النص الأدبي، لا تظن هذا تزييفًا أو تلونًا هذا جزء من التزام الأديب الذي هو في النهاية حرّ في نصّه وأفكاره. هذه هي فلسفتي في الأدب والالتزام.

ذكّرني حديث السيّاب عن «البطل التراجيدي» بلقائي لأول مرة الكاتب والروائي جبرا إبراهيم جبرا في القاهرة. كنت يومها في الجزائر، حين تلقيتُ عن طريق الناقد جابر عصفور، دعوة من وزارة الثقافة المصرية، لحضور مهرجان حافظ وشوقي عام 1982.

حضر معي مدعوًّا الكاتب الجزائري د. محمد مصايف، وحضر جبرا من بغداد حيث كان يقيم، وحضر أيضًا عبد الوهاب البياتي من إسبانيا. وفي جلسة مسائية في فندق «النيل» حضرها، على ما أذكر، لويس عوض وجمال الغيطاني وأحمد عبد المعطي حجازي. سألني جبرا عن بعض جوانب حياة سيف الدولة الحمداني بعد أن علم أنني كتبت أطروحة عن شعراء بلاطه في القران الرابع الهجري، وعن «سيفيات» المتنبي والحركة الشعرية في تلك المرحلة. قال إنه يعدّ كتابًا عن الأبطال التراجيديين في التاريخ. وإنه ينوي كتابة فصل عن شخصية سيف الدولة.

سألني عن موت سيف الدولة، وما تقوله الروايات حول نهايته.

ذكرت له محاولة اغتياله من قبل خادمه التركي «قرغويه»، الذي جعله قائدًا لجيشه، وتضارُب الروايات في ذلك. بعضها ذكر أنه مات مسمومًا،



وبعضها ذكر أنه مات بالفالج، وبعضها ذكر أنه أصيب بطعنة في أسفل ظهره خلال إحدى غزواته للروم، سببت له عسرًا في التبول، مات فيه عام 356هـ، وهذه الرواية هي الأرجح بحسبما ذكر ابن الأثير في «الكامل في التاريخ». قال «جبرا»، الذي عرف عنه أن بعض أبطال رواياته كانوا تراجيديين، أو أن مصائرهم كانت كذلك، قال إنه يريد توظيف هذه العناصر في دراسة أبطال التاريخ، وإن شخصية سيف الدولة تتوافر فيها هذه العناصر. لقد قامت بدور في التاريخ العربي، حربيًّا وأدبيًّا. قلت له: إن شاعره «المتنبي»، الذي شهد معه غزواته ضد الروم، قد صوَّر أحداثها التراجيدية في شِعره، طوال حروبه مع الروم والتي دامت أكثر من عشرين عامًا، كانت سجلًّا حافلًا لملاحم البطولة والتضحية، وتتوافر فيها كل عناصر المأساة والتراجيديا. وحين جاء ذكر السيّاب، ورويت له ما شهدته من معاناته في أيامه الأخيرة وهو راقد في المستشفى بالكويت، قال إنه يعرف السيّاب جيدًا منذ الخمسينيات حين كان يلتقيه في مقاهي بغداد، وأنه وجد فيه رائدًا كبيرًا للحداثة الشعرية.. وهو يعدّ فصلًا خاصًّا عنه سيدخله في كتابه القادم، ثم قال: إن حياته ومأساة مرضه وموته، تشكل حالة تراجيدية كاملة جديرة بالدراسة.

لا علم لي بما حصل بعد ذلك من مشروع جبرا وكتابه، ما إذا كان قد رأى النور أم أنه ظلّ بين أوراق مكتبته التي احترقت حين هجموا على بيته وأحرقوه.

* * *

لم أجادل السيّاب في أثناء تلك الجلسة وهو يتحدث عن فلسفة الالتزام في الأدب ونظرية الفن للفن، والشِّعر في خدمة الجماهير.. إلخ



وهي الآراء التي قرأناها بعد ذلك في محاضرته التي ألقاها عام 1961 في روما، حين ذهب للمشاركة في مؤتمر حول الأدب العربي المعاصِر، وهي المحاضرة التي أثارت كثيرًا من الجدل والمناقشات في الصحافة العربية.

لقد انتقد بعض النقّاد والجهات الأدبية السيّاب حينها واتهموه بالتناقض، والتذبذب في محاضرته عن «الالتزام في الأدب العربي» التي ألقاها في مؤتمر روما، والتي ذكر فيها أن تأثره هو وجيله من الشعراء العرب بالشاعر «ت. س. إليوت» كان موضوعيًّا وفنيًّا، مخالفًا فيه رأيه المتداول والمعروف في المقابلات الأدبية، في أن تأثره كان فقط من ناحية الأسلوب ولا سيما في قصيدتيه «الأرض الخراب» و«أغنية العاشق بروفروك». إلى آخر هذه الآراء المعروفة التي دُرست بإسهاب في كتب عدة، من بينها كتاب «الأسطورة في شِعر بدر شاكر السيّاب» للناقد الدكتور عبد الرضا علي.

غير أن السيّاب دافع حينها عن رأيه، ولم يعبأ كثيرًا بتلك الانتقادات التي عدَّها مغرضة وغير موضوعية، وعبَّر بوضوح عن موقفه إزاء التزام الشاعر قضايا المجتمع ونظرته الفلسفية نحو موقف الإنسان من الفن والوجود.

يُذكر أن السيّاب كان في مرحلة من المراحل يطلق على «إليوت» لقب «الشاعر الرجعي» وكان ذلك في أثناء انخراطه في الحزب الشيوعي وتشبّعه بالأفكار الماركسية والمفاهيم اليسارية الثورية.

كان السيّاب مرتاحًا لجلسته معنا في النادي، فقد طلب كوبًا آخر من الحليب الساخن، قال إن ذلك يهدئ آلام القرحة التي تنتابه من حين إلى آخر.



التفتَ إليّ يسألني: هل قرأت المقابلة أمس في مجلة «الفنون»؟.

ـ نعم.. قرأتها.

ـ كيف وجدتها؟

ـ قيل إن فيها تهجمًا على بعض الشعراء من زملائك..

ـ أنا لم أتهجّم، هم الذين تهجّموا عليّ، وحاولوا الإساءة إلى سمعتي لأنني اختلفت معهم في الرأي، أنا طرحت آرائي حول الواقعية والالتزام في الأدب وضربت بعض الأمثلة كما أنني حرّ في اختياراتي السياسية.

ـ لك الحق في ذلك طبعًا، لكنك قلت إنهم يسرقون منك، وقلت عن عبد الوهاب البياتي إنه عالة عليّ وعلى إليوت.

ـ نعم أنا قلت ما أعتقد من الحقائق، إنهم يأخذون مني وينسبونه إلى «إليوت». أنا أقرأ «إليوت» بلغته الأصلية، وهم يقرؤونه مترجمًا. وفي النهاية يلتبس عليهم الأمر، ويصبحون عالة على كلينا، أغلبهم حساد، وكأنهم بذلك يطبّقون مقولة إليوت: «الشاعر الرديء يستعير، والشاعر الجيّد يسرق».

لاحظت للمرة الأولى نبرة غضب في لهجته، نظرًا إلى حساسية الموضوع. (كانت مجلة «الفنون» البغدادية الأسبوعية التي كان يصدرها الفنان «كاميران حسني» ويرأس تحريرها الشاعر «صادق الصائغ» قد نشرت في ذلك الوقت مقابلة مع السيّاب، تحدَّث فيها عن موضوعات شتّى حول الأدب والشِّعر العراقي الحديث وعلاقته بالشعراء العراقيين).

أدركت تسرُّعي في إثارة هذه الموضوعات الحساسة حول خصوماته مع الآخرين التي تزعجه وتثير انفعاله فآثرت تغيير مجرى الحديث.



وفي مقال نشره السيّاب في مجلة «الآداب» اكتوبر 1956 حدّد موقفه من الالتزام الأدبي، وذكر أنه من دعاة الأدب الواقعي قائلًا: إن الواقعية التي أدعو إليها هي الواقعية الحديثة التي تحدّث عنها الشاعر الإنكليزي الكبير «ستيفن سبندر» وليست تلك التي يراها الطبيعيون الذين ينقلون الواقع نقلًا فوتوغرافيًا.



الفصل الثاني

محنة المرض ونبل التّسامح

في هذه الفترة كان السيّاب قد اختلف مع الحزب الشيوعي وانسحب منه، بعد أن تعرّض لحملة معادية من الأدباء اليساريين في الصحافة العراقية بسبب تغييره لانتمائه السياسي، مع أنه كان مفصولًا من وظيفته في موانئ البصرة ومحاربًا في رزقه. فليس غريبًا إذًا وسط هذا الإحباط والوضع النفسي المتأزم الذي كان يعيشه، أن تخلق تلك المواقف العدائية مبرّرًا كافيًا لديه، كي يصبّ جام غضبه على منافسيه ويهاجمهم بلا هوادة في تلك المقابلة. ولا غرابة أيضًا أن تنفجر كل تلك الملابسات لاحقًا في بيت الجواهري، بعد ثورة تموز 1958 لدى انتخاب الهيئة الإدارية لأول اتحاد أدباء في العراق.

كانت الأجواء في ذلك الاجتماع مهيّأة للانفجار. إذ كانت القوى اليسارية تخطط بوضوح لتهميش السيّاب وازدرائه وإبعاده عن الهيئة الإدارية للاتحاد، وقد نجحت في ذلك وأصيب السيّاب بأزمة نفسية قاتلة دفعته لاحقًا إلى كتابة تلك السلسلة المعروفة من مقالاته الغاضبة التي نشرها في جريدة «الحرية» البغدادية منتصف آب/ أغسطس 1959 بعنوان «كنت شيوعيًّا» والتي أثارت جدلًا واسعًا في حينه. وقد تأكدت هذه



الحملة ضد السيّاب بشهادتين مهمتين من الناحية التاريخية والتوثيقية، لاثنين من أهم شعراء تلك المرحلة، وهما: بلند الحيدري ولميعة عباس عمارة، آثرت إدراجهما كاملتين هنا نظرًا إلى أهميتهما تاريخيًّا وأدبيًّا في تسجيل أحداث تلك المرحلة السياسية العصيبة من تاريخ العراق.

الشهادة الأولى

الشاعرة لميعة عباس عمارة قدمت عام 1996 من أميركا في زيارة إلى لندن. وانتهز «ديوان الكوفة» فرصة وجودها، فأقام لها أمسية شعرية قدمتُها فيها للجمهور. كانت أمسية حافلة حضرها عدد كبير من الأدباء والصحفيين ورجال الإعلام. قرأت فيها مجموعة من قصائدها الجديدة ومختارات من دواوينها السابقة. وبطلب من الحاضرين تحدّثت عن جوانب من ذكرياتها مع السيّاب، مشيرة إلى بعض المحطات في حياته، كاشفة ربما للمرة الأولى عن بعض الأمور الخاصة بحياته غير المعروفة من قبل.. ذكرت لي الشاعرة «لميعة» أنها تعدُّ مذكرات أدبية موسعة، فيها جزء كبير لم يُعرف من قبل عن حياة بدر، وأنها تعتزم طبعها في كتاب، لكنها اتفقت مع جريدة «الشرق الأوسط» على نشرها في حلقات قبل إصدارها في كتاب. وبالفعل لم تمض أشهر قليلة حتى بدأت تلك المذكرات تخرج على صفحات الجريدة بحلقات تحت عنوان «من المذكرات» حيث ظهرت الحلقة الأولى بتاريخ 1996/8/7 في العدد 6462.

وفي الحلقة الثامنة التي نشرت يوم الأربعاء 1996/09/25 في العدد 6511 تحدثت الشاعرة لميعة عن السيّاب من خلال الاجتماع الذي عقد في بيت «الجواهري» لانتخاب أول هيئة إدارية لاتحاد الأدباء في العراق في العهد الجمهوري. ولأهمية هذه الشهادة التاريخية، فإنني أنقل



حرفيًّا ما قالته وخصوصًا أنها تكشف عن الكثير من تلك الملابسات التي أثّرت لاحقًا، أدبيًّا وجسديًّا ونفسيًّا على السيّاب: «كان الاجتماع في بيت الجواهري لانتخاب الهيئة الإدارية لأول اتحاد أدباء عراقي صيف 1958 في حديقة الدار الواسعة المطلة على شاطئ دجلة. عشرات الأدباء والشعراء التقوا بغض النظر عن اتجاهاتهم السياسية.

في بداية الثورة كانت سيطرة الشيوعيين تبدو واضحة على الاجتماع الذي حضره بدر شاكر السيّاب. وأهمل فيه بدر بشكل واضح، فأصيب بمغص وغثيان وكاد يُغمى عليه، فأسنده أحد الموجودين وأخرجه. كان بدر قد غيّر انتماءه إلى الحزب الشيوعي قبل ثورة 14 تموز/ يوليو 1958. كانت هذه ضربة لبدر الذي لحقه غبن كثير وتهجُّم. وهجاه شاعر ينافسه بقصيدة، وحاربه الحزب الذي تبنّى هذا الشاعر على حساب السيّاب. حتى لقد أوصى أحد قادة الحزب الشيوعي (الذي خان الحزب وأسلم جماعته للإعدام قبل أن يصفع صفعة واحدة) أوصى الرفاق هذا القائد قبل براءته من الحزب: على كل من يصادف بدر شاكر السيّاب في الطريق أو في أي مكان أن يهينه ويبصق عليه، ليعلم الجميع أن الحزب لا يتعاون مع الخونة. والعجيب أن كلًّا من الشاعر والسياسي صارا يدّعيان أنهما كانا من أصدقاء بدر بعد موته». هذا نص ما كتبته في تلك الحلقة.

ولعل الشاعرة لميعة تقصد بذلك الشاعر «عبد الوهاب البياتي»، الذي تبنّاه الحزب الشيوعي بعد انسحاب السيّاب منه، إذ كانت المنافسة الشعرية بينهما على الريادة معروفة في الأوساط الثقافية والأدبية في بغداد. إذ عرف عن البياتي أنه لا يخشى غير السيّاب في المنافسة على زعامة الحركة الشعرية الجديدة في العراق، لأنه يدرك خطورة موهبته الشعرية الكبيرة على موقعه الريادي في حركة الشِّعر الحر. وفي هذا



المجال أيضًا، لا يمكن استبعاد عنصر «الغيرة» لدى البياتي مما كان يتردّد عن وجود علاقة بين لميعة والسيّاب، وزياراتها له في قريته بالبصرة، وما قيل مرة إنها زارته مع خالها وظلّت مدة ثلاثة أيام في «جيكور» مما جعل البياتي يدّعي أحيانًا في مجالسه الخاصة أن لميعة كانت تحبه هو، وأنها كانت «تجامل» السيّاب فقط. علمًا بأن لميعة كانت تنتقد البياتي كثيرًا، وتقول عنه إنه كان يغار من السيّاب، وإنه لم يدخل مكتبة الكلية ولو لمرّة واحدة طوال فترة الدراسة التي جمعتهما معًا في صف واحد.

وما أعرفه أنا، أن البياتي كان يعتمد دائمًا على مكتبته الخاصة ومراجعه في الأدب والبحث.

وأذكر في هذا الصدد أن البياتي أخبرني في آخر رسالة له من دمشق بتاريخ 1998/4/24 أنه أهدى مكتبته الخاصة إلى منظمة التحرير الفلسطينية، حيث كان ينوي العودة إلى بغداد على الرغم من عدم وجود بيت له هناك، وهي آخر مكتبة له قبل رحيله.

هنا لا بد من الإشارة، إلى أن البياتي لم يذكر «لميعة» قطُّ في شِعره. أما السيّاب فقد أشار إليها في قصائد كثيرة. كما أنه ذكرها بالاسم في قصيدته «سفر أيوب» التي كتبها وهو على فراش المرض في لندن، والتي يشير فيها إلى مشهد توديع لميعة له في أثناء سفره إلى بيروت من أجل العلاج، حيث يقول:

«ذكرتك يا لميعةُ،

والدجى ثلجٌ وأمطارُ

ولندن مات فيها الليل،

مات تنفس النور



ذكرت شحوب وجهك،

حين زمّر بوق سيّارة

ليؤذن بالوداع،

ذكرت لذع الدمع في خديّ،

رعشة خافقي،

وانين روحي يملأ الحاره

بأصداء المقابر، والدجى ثلجُ وأمطارُ»

لا نريد أن نخوض في تفاصيل هذه العلاقة الملتبسة بين لميعة والسيّاب فهي ليست موضوع هذا الكتاب، ناهيك عن كونها كتب عنها الكثير، وتضاربت فيها الآراء والتأويلات، كما أن لميعة نفسها زادتها غموضًا والتباسًا بعدم تأكيدها أو الإشارة إليها صراحة، عمدًا أو عن غير عمدٍ، وقد تكون قد تعمدّت ذلك، وهي بذلك قد فسحت المجال لمزيد من التكهنات والظنون، فكثرت الكتابة، وتناسلت التأويلات.

ما يهمنا في هذا السياق هو الجانب الأدبي والتاريخي من هذه المسألة، وبخاصة ما له صلة بحياة السيّاب. ولعل من المفيد أن نذكر أن الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد، كتب مرة يقول: «ابنة خالي الشاعرة لميعة عباس عمارة عرّفتني بالسيّاب وكان بينها وبين بدر إعجاب فيه الكثير من المودّة والزهو من جانبها، وما هو أكثر من ذلك من جانب بدر».

وقد تكون هذه الإشارة المرصودة بدقة والمبنية على مشاهدة يومية هي أدّق وصف مكتوب عن طبيعة تلك العلاقة العاطفية التي ستظل بعد موت «بدر» وصمت «لميعة»، مثار جدل وحدس لزمان طويل.



وحتى ما قيل من أن «لميعة» كتبت عن السيّاب تقول:

«ستمضي، فمن لي بأن امنعك

ستمضي، فهل لي أن اتبعك

فشعري، وحبي وعمري سدى

إذا لم أُمتّع بعيشي معك»

فإن فيها من الغموض وعدم التحديد، ولا أقول العمومية وشمولية القصد، ما يجعلها عرضة للتساؤل والشكوك.

وعودة إلى المذكرات، لا بد من أن نشير هنا إلى أن الشاعرة «لميعة» ذكرت في الحلقة الأولى من تلك المذكرات أنها كانت تساعد السيّاب على بيع ديوانه الأول «أزهار ذابلة» حيث كانت وهي طالبة معه في دار المعلمين العالية، تقطع الطريق مشيًا على الأقدام من الوزيرية إلى الباب المعظم، حاملة على كتفيها كيسًا كبيرًا مملوءًا بنسخ من الديوان بغية بيعها لصديقاتها في «معهد الملكة عالية»، ثم تجمع ثمنها وتسلِّمه إلى السيّاب تعويضًا له عما أنفقه من جيبه الخاص على طباعة ديوانه في القاهرة.

وفي موضع آخر تشير إلى أنها رغبت في طباعة ديوانها الثالث في بيروت، وأنها انتهزت زيارة «نزار قباني» لبغداد لحضور «المربد الشعري الأول» وطلبت منه مساعدتها في ذلك. لكن «نزار» اعتذر قائلًا لها: «أنصحك أولًا أن تكتبي كتابًا بعنوان: «أنا والسيّاب» وستكون لك شهرة كبيرة، بحيث تسعى دور النشر هي إليك، لتعرض عليك طباعة دواوينك وتدفع لك».

قلت له: لا أريد أن أبني شهرتي على أشلاء رجل بائس..



قال: أو يتبرع من يشتمك. فالشتم في الصحافة يمهد الطريق إلى الشهرة. فقلت: لا أريد أن أشتم وأن أشتهر، وأفضل أن أظل (مرتاحة).

الشهادة الثانية

وهي تؤكد الموقف السلبي المتعمّد الذي اتخذه الأدباء اليساريون والشيوعيون من السيّاب واستبعاده من الهيئة الإدارية للاتحاد وتهميش دوره في الاجتماع، من خلال ما ذكره صديقه الشاعر بلند الحيدري، في محاضرة دُعي لإلقائها في ديوان الكوفة بلندن بتاريخ 1993/11/23 لكي يتحدث عن سيرته الذاتية. قال الحيدري عن اجتماع صيف 1958 لانتخاب الهيئة التأسيسية لاتحاد الأدباء العراقيين ما نصّه:

«إنني صُدمت لدى اجتماعنا الأول في دار الجواهري عندما أُبعد اسم السيّاب الذي كنت قد اقترحته واحدًا في الهيئة التأسيسية، فانسحبتُ بدوري معه من اتحاد الأدباء كله. وفي عام 1961 عدت إليه إثر انتخابي عضوًا في الهيئة الإدارية، ومن دون استشارتي».

المحاضرة مكتوبة بخط يده، ونسختها الأصلية محفوظة لديّ. وقد سمح لنا بلند بعد ذلك بنشرها في «المجلة الثقافية» التي كان يرأس تحريرها الأديب القاص عبد الله الناصر، في لندن، وكنت المحرّر الثقافي فيها.

تؤكد هاتان الشهادتان ما كان يردّده السيّاب، من أنه حورب بتعمّد، وأن استبعاده من الهيئة الإدارية للاتحاد كان نتيجة ضغط شديد من الحزب الشيوعي الذي كان مسيطرًا على الحياة السياسية والثقافية بعد سقوط النظام الملكي، وذلك بسبب خلافه مع الحزب وانسحابه منه لما عدّه «تسلطًا ودكتاتورية قمعية تفشت في الحزب نتيجة سيطرة قادة لا



يؤمنون بالديموقراطية وحرية الفرد واختلاف الرأي»، على حدِّ قولَه لي في الكويت لاحقًا.

والواقع أن السيّاب واجه كثيرًا من المتاعب والملاحقات والإهانات الشخصية والجسدية بسبب عدم مجاراته للشيوعيين في تأييدهم حكم عبد الكريم قاسم. وقد أشار إلى هذه الحوادث بعض أصدقاء السيّاب ومنهم «محيي الدين إسماعيل» الذي ذكر مرة أن «بدر» تعرَّض في تلك الفترة إلى مضايقات كثيرة، ذلك أن رفاقه الشيوعيين تعمدوا إيذاءه. وحدث مرة أن تعرَّضوا له في الشارع «وأجبروه بعد أن أهانوه على أن يعلّق صورة الزعيم عبد الكريم قاسم على ياقة معطفه»، بحسبما نقل «ناجي علوش» في مقدمته لديوان السيّاب.



الفصل الثالث

رِيادة الشِّعر وخصومات الأدب

في الحلقة الثامنة التي أشرنا إليها ذكرت لميعة أن السيّاب كان يحب فتاة جميلة جدًّا اسمها «لبيبة القيسي» كانت زميلة له في دار المعلمين العالية، وقد ذكرها في عدة قصائد حيث كان يسمّيها «لُباب». ويبدو أن هذا الحب كان من طرف واحد، شأنه شأن بقية التجارب العاطفية الفاشلة التي كان يتورّط فيها السيّاب. وبعد تخرُّج «لبيبة» أصبحت زميلة للميعة في التدريس بدار المعلمات، ونشأت بينهما صداقة حميمة كانت كافية للمكاشفة والحديث عن مكنونات الصدور وكشف الأسرار الخفية.

ففي جلسة هادئة سانحة، كما تذكر لميعة، وبعيدة من ضوضاء الطالبات في المدرسة وصخبهن، سألت لميعة صاحبتها: هل تعرفين أن بدر شاكر السيّاب كان يحبك، وأنه ذكرك في قصائد عدة؟.

أجابت «لبيبة»، بلا اهتمام كبير «بأنها لم تسمع بتلك القصائد، ولا تذكر شيئًا عن الشاعر، فقد كانت هي في السنة الرابعة وهو في سنته الأولى، وأنها سمعت به فقط من خلال حديث الطلبة عنه» ولنا أن نتصوّر كم هو محزن أن يسهر شاعر لياليه ويحرق عواطفه في كتابة قصائد لامرأة لا



تعرفه ولا تشعر بوجوده ولا تقرأ ما يكتبه فيها، وهذه أيضًا إحدى خيبات السيّاب في حياته البائسة.

لكن لبيبة هذه، أخبرت لميعة، في أثناء تلك الجلسة، بقصة عاطفية عجيبة حدثت لها مع «نازك الملائكة» التي كانت أيضًا زميلة لهما في دار المعلمات. ولدهشة لميعة من غرابة تلك القصة، فقد ظنّتها سرًّا خاصًّا لا يعرفه أحد غيرها، وآلت على نفسها ألّا تبوح به لأحد ما دامت حيّة.

تقول لميعة: «إنها سر من الأسرار، لم يسمع به أحد غيري، ومازلت احتفظ بما كتبت عنه، ولكن سأرجئ نشره إلى وقت آخر، بعد وفاتي أو وفاة نازك».

ولنا أن نتساءل: ترى ما حقيقة هذا السر النسائي الغريب الذي تكتمت عليه لميعة طوال هذه السنين؟ ولماذا تتحدث عنه الآن؟ ولماذا لم تتكتّم عليه نهائيًّا، إذا كانت لا تريد لأحد أن يطّلع عليه؟ كما أن لميعة تذكر أيضًا أن نازك كتبت قصيدة طويلة موجّهة إلى لبيبة (وهي غير موجودة في دواوينها المطبوعة) عنوانها «الخيال والواقع» جاء في مطلعها:

«رحمة لا تنزليني من سمائي
رحمة بي، رحمة لا تحزنيني
ودعيني في خيالاتي دعيني
قصة الإثم وأنباء المجون
لا تقصّيها على قلبي الحزين»

وتقول لميعة بعد سماعها تلك القصة: «لاشك في أن نازك كانت تخاطب لبيبة بقصيدتها تلك، وإنني سجلت هذه القصة وكأنها من قصص



ألف ليلة وليلة، سجلتها كما روتها لبيبة، تلك القصة العجيبة التي تصلح فيلمًا سينمائيًّا غريبًا، وكأنها سر من الأسرار».

بدت لميعة مذهولة لسماعها «قصة الإثم وأنباء المجون» التي أشارت إليها نازك على غير عادتها الرصينة المتحفّظة التي عرفت بها، كما أن القارئ لَيندهش حقًّا لما يسمع من هذه المكاشفة العاطفية غير المألوفة في أدبنا النسائي العربي. حديث في غاية السرية بين امرأتين يجمعهما قاسم مشترك، هو شاعر سيئ الحظ، أحبهما معًا، ولم يظفر منهما بطائل، وخرج منهما بخفّي حُنين.

وأنا أقرأ هذه الحادثة في مذكرات لميعة، استحضرتني صورة نازك الملائكة المحتشمة، حين دخلت علينا ذات يوم من خريف 1957 قاعة الدرس في دار المعلمين العالية، حيث كان أستاذنا الدكتور «سليم النعيمي» يلقي محاضرته في مادة التاريخ. والدكتور النعيمي هو أول من ترجم إلى العربية كتاب «أعمدة الحكمة السبعة» للكاتب البريطاني «توماس إدوارد لورنس» المشهور باسم «لورنس العرب».

دخلت نازك حاملة محفظة ثقيلة سوداء ومرتدية «بذلة» رمادية محتشمة.. سلّمت على الدكتور النعيمي بارتباك ظاهر وأشار إليها بالجلوس في أحد المقاعد الخلفية، وشاءت المصادفة أنها جلست ورائي مباشرة في المقعد الخلفي حيث كنت أجلس في الصف ما قبل الأخير.

كان دخولها قاعة المحاضرات شيئًا غير معتاد رسميًّا لزائر من خارج الكلية في أثناء وجود الأستاذ. ولا بد من أن يكون هذا قد تم بموافقة واتفاق مسبق مع أستاذها السابق النعيمي وتلبية لرغبتها في الاطلاع على الدرس الجامعي وتدريبها على طرائق التدريس قبل مباشرتها الفعلية



وتعيينهـا المنتظـر رسـميًّا مدرِّسـة معيـدة لمـادة العروض والنقـد الأدبي المقارن في الكلية.

في البداية لم يكترث الطلبة لدخول هذه الزائرة الغريبة، كما أنهم لم يعرفوا أنها نازك الملائكة الشاعرة المعروفة أو ربما أكثرهم لم يسمع بها أو يقرأ قصائدها. وحتى الدكتور النعيمي بشخصيته اللامبالية ومزاجه العبثي أحيانًا لم يكترث لتقديم هذه الزائرة لطلبته كشاعرة معروفة، بحسبما تقتضي الأصول.

غير أنني لكثرة ما شاهدت صورها، وقرأت قصائدها في الصحف العراقية، أدركت للتوّ أنها هي، نازك الملائكة.

بدت لي وهي في الرابعة والثلاثين يومها، أكبر سنًّا، وجسمها أقرب إلى الامتلاء من تلك الصورة التي اعتادت أن تنشرها لها الصحافة. لم تكن جميلة، بالمقياس العام للجمال، مثل لميعة وعاتكة، لكن بشرتها القمحية ودقة ملامحها أكسبتها مسحة من الوسامة الوقورة، تشوبها حشمة فطرية لا تخفيها العين.

حين جلست ورائي، شعرت بالارتباك وكأنني محاصر من دون أن أستطيع الالتفات إليها. كانت لديّ رغبة في أن أحييها أو أكلمها، لكنّ صوت أستاذنا النعيمي الذي كان يهزّ القاعة وعينيه الجاحظتين الكبيرتين اللتين تحاصراننا وتحدّقان في وجوهنا، لم تتركا لي حتّى فرصة التفاتة صغيرة.

إلّا أنني في لحظة خاطفة، استجمعت شجاعتي، وتجرأت ملتفتًا إليها قائلًا بهمس خجول: «مرحبًا أستاذة نازك» رفعت رأسها نحوي، وردّت بابتسامة وقورة: «مرحبًا... أهـلًا» ولمحتُ بطرف عيني الدفتر الكبير



وأوراق الملاحظات التي وضعتها أمامها على الطاولة. عدت بسرعة إلى صوت الدكتور النعيمي، الذي مازال ينبش في أعماق التاريخ وحضارات الأمم، لكن بالي ظل مشغولًا بذاك الكائن الذي يجلس ورائي ولا أستطيع الالتفات إليه.

كنت بين الفينة والفينة أسمع حفيف أوراق نازك وصرير قلمها وهي تقلّب الصفحات وتدوّن الملاحظات.

قلت في نفسي: إنه مازال هناك أمل في التحدث إليها بعد نهاية المحاضرة، كما أن زملائي الطلبة لا بد من أنهم سيعرفون أنها نازك، ويقبلون عليها ويتعرفون إليها أو يسألونها بعض الأسئلة، ولكن سرعان ما خاب هذا الأمل، إذ ما إن انتهت المحاضرة حتى انطلقت نازك مسرعة نحو الدكتور النعيمي، الذي خرج معها، متجهين إلى غرفة الأساتذة في آخر الممر الطويل.

ظلّ الطلبة مندهشين لخروجها المباغت الذي كان أشبه بهروب من مواجهة، شعروا بالأسف، بعد أن عرفوا أنها نازك، لضياع فرصة التعرف إلى شاعرة معروفة في العراق والعالم العربي.

حين عُينت نازك بعد ذلك مدرّسة معيدة لمادة العروض والنقد الأدبي كان مؤملًا أن تساهم في النشاط الثقافي الذي كان يقام في دار المعلمين العالية أو أن تحضر الأمسيات الأدبية التي تقيمها اللجنة الثقافية، لكنها بسبب عزلتها وانطوائها، لم تفعل شيئًا من ذلك، شأنها شأن الشاعرة «عاتكة الخزرجي» التي هي الأخرى كانت تعيش في عزلة بعيدة من المشاركة في أيّ نشاطات أدبية، مع أن خبرًا تداوله الطلبة يومها بأن نازك وعاتكة ستحضران أمسية السيّاب التي أعلنّا عنها. لكنهما لم تحضرا.



لقد كان ذلك مؤسفًا حقًا. إذ كان يمكن لوجود شاعرتين معروفتين في كلية واحدة، إلى جانب بعض من أساتذتنا الأدباء المعروفين أمثال صفاء خلوصي وعبد الرزاق محيي الدين وعلي جواد الطاهر وصالح جواد الطعمة، أن يحدث نشاطًا ثقافيًا وأدبيًا متميّزًا، ويساعد على ازدهار حركة شعرية وإبداعية بين المواهب الطلابية الأدبية الشابة التي كانت تزخر بها الكلية، ولأن ذلك لم يحدث، فقد اضطرت اللجنة الثقافية للاعتماد على جهودها الذاتية، وعلى حماسة أعضائها الأدباء.

وكأن هذا يُذكّرني بالمعنى الذي كان يقصده السيّاب حين قال لنا: اعتمدوا على أنفسكم ولا تعوّلوا على الأجيال أو رعاية الأدباء الآخرين.

وقد كان هذا هو النهج ذاته الذي اعتمده هو وزملاؤه الآخرون حين كانوا طلبة يقيمون أمسياتهم الأدبية في دار المعلمين العالية إبان الأربعينيات من القرن الماضي، وسارت على نهجه بعد ذلك الأجيال الأدبية اللاحقة التي احتضنتهم تلك الدار، أمثال عبد الرزاق عبد الواحد، وسعدي يوسف وشاذل طاقة ويوسف الصائغ وغيرهم.

وعلى صعيد الواقع الشخصي، فإن الانعزال الثقافي الذي مارسته الشاعرتان نازك وعاتكة، لم يقتصر على دار المعلمين فحسب، بل تعداه أيضًا إلى واقع الحياة الأدبية في عموم بغداد. فمنذ إكمال دارستهما في الخارج وعودة الأولى من أميركا والثانية من فرنسا، في آن تقريبًا (عام 1957)، لم تشهد لهما الساحة الثقافية أي نشاط فاعل، في الوقت الذي كانت فيه الحركة الأدبية تزدهر في بغداد آنذاك، بل ظل نشاطهما محدودًا مقتصرًا على التدريس في الجامعة ونشر بعض القصائد والمقالات من وقت إلى آخر في الصحف العراقية.



واستمرت هذه العزلة الأدبية حتى بداية العهد الجمهوري، ثم ازدادت أكثر عِام 1959 حين احتدم الصراع السياسي والإيديولوجي بين الأحزاب المتناحرة، مما انعكس سلبًا على توجهات الأدباء والمفكرين، وأدى إلى انقسامهم وتأسيس منظمات واتحادات أدبية تمثل هذا الاتجاه أو ذاك.

وعلى هذا الأساس عُقد الاجتماع الذي أشرنا إليه في بيت الجواهري من أجل تأسيس اتحاد للأدباء العراقيين، حرص منذ بدايته على أن يكون ممثلًا لكل الاتجاهات السياسية الوطنية والقومية والإسلامية في العراق، حفاظًا على وحدة الصف الوطني.

في ذاك الاجتماع تم ترشيح الهيئة التأسيسية الأولى للاتحاد، التي ضمت كلًّا من الجواهري، وصلاح خالص، وعلي جواد الطاهر، ومهدي المخزومي، وخالد الشواف (إسلامي)، وعبد الله كوران (كردي) وعبد الصمد خانقاه (تركماني)، ولميعة عباس عمارة، ونازك الملائكة، وسافرة جميل حافظ، وبلند الحيدري، وحسين مردان (عضو احتياط، ثم أصبح بعد ذلك عضوًا أصليًّا بعد انسحاب نازك الملائكة).

اتفقت هيئة الاتحاد على استئجار مقرّ مؤقت لها في شارع الرشيد، ريثما تستكمل إجراءات إجازته رسميًّا. ثم وافق الزعيم عبد الكريم قاسم، بعد ذلك، على إجازته وتخصيص مقر له في منطقة العلوية، ساحة الأندلس، حيث باقٍ حتى الآن.

وفي مقابل تأسيس هذا الاتحاد الذي كان يخضع لهيمنة الشيوعيين واليساريين بشكل عام، تداعى الأدباء البعثيون والقوميون العرب، الذين كانوا يشعرون بالغبن وعدم تمثيلهم بشكل مناسب في اتحاد الأدباء، إلى تأسيس منظمة أدبية خاصة بهم، أطلقوا عليها اسم «جمعية الكتّاب



والمؤلفين» التي كان من أبرز أعضائها: هلال ناجي ونعمان ماهر الكنعاني وعدنان الراوي وكاظم جواد، بالإضافة إلى نازك المِلائكة وخالد الشواف، اللذين استقالا من عضوية الاتحاد بعد ذلك، وقبل أن يحضرا أي اجتماع لاحق، وانضما إلى «جمعية الكتّاب والمؤلفين».

وقيل يومها إن ذلك كان بضغط من البعثيين والقوميين. أما السيّاب، الذي استبعد بتعمّد من الهيئة الإدارية للاتحاد مثلما أشرنا سابقًا، فقد انضم هو الآخر إلى عضوية الجمعية، بعد أن توطّدت صلته بأعضائها القوميين عقب ابتعاده عن الحزب الشيوعي.

ولم يمض وقت طويل حتى بدأت الخلافات بين أعضاء الجمعية، وانقطع السيّاب كليًّا عن حضور اجتماعاتها.



الفصل الرابع

السيّاب في «حانة القطّ الأسود»

أعود إلى جلستنا في النادي، كان السيّاب هادئًا منشرح الأسارير وسط هذا الجوّ الطلابي الطافح بالحيوية والشباب، والذي افتقده من سنين. وربما أعاده إلى أيام الدراسة وذكراها في هذا المكان، وهو يشاهد هؤلاء اليافعين من الطالبات والطلبة، يروحون ويغدون، مبتهجين بشبابهم، فرحين بأحلام مستقبلهم، يحملون أكواب الشاي والقهوة و«السندويتشات»، يضحكون ويبتسم بعضهم لبعض، وتسمع بين الفينة والفينة كلمات غزل محتشمة، أو نظرات وتلميحات ذات مغزى من بعض المشاكسين منهم، كان السيّاب يسمع ذلك ويبتسم ويلتفت بين الحين والحين إلى مصدر تلك الأصوات، ثم يلتفت إليّ بنظرة لها معناها وهو يبتسم.

كـان بدر، في تلك الحالة الرضيّة، يبدو مـرتاحًا لوجوده معنا، وكان «حميد الهيتي» يستثير ذكرياته في «العالية» ويسأله كيف يراها الآن بعد كل تلك السنين. كان السيّاب فرحًا بشكل خاص بوجود صديقه القديم «محمود الريفي» الذي بدا لي شبه السيّاب في سحنته الريفية وتجاعيد



وجهه الفلاحي، مع سيماء واضحة من الطيبة والبراءة. بدأ يستعيد معه بعض الأيام المشتركة واللقاءات الأدبية الماضية في أماكن مختلفة من بغداد، وكنت أصغي إليهما بفضول ومتعة وهما يذكران أسماء بعض الأدباء الذين لا أعرفهم شخصيًا، لكنّني كنت أسمع عنهم وأقرأ بعض ما ينشرون في الصحف والمجلات العراقية.

لم يطل مكوث الريفي والهيتي كثيرًا، حيث استأذن كلاهما بالانصراف بعد برهة، وصافحا السيّاب معتذرين وبقيت وحدي معه.

اقترحت عليه أن نطلب عشاء لكنّه اعتذر قائلًا: أنا في حمية بسبب المعدة، ولا أتعشى في الغالب، وأكتفي بالخبز والحساء الخفيف. ثم نظر إليّ بإمعان وقال مبتسمًا: أنت تذكّرني بحماستي أيام كنت طالبًا هنا. أجبته ضاحكًا: نحن امتداد لكم، تعلّمنا منكم فأنتم قدوتنا. فردّ قائلًا: اسلكوا طريقكم الذي تختارون. أنتم جيل مختلف ولا بد من أن يكون إبداعكم كذلك. اعتمدوا على أنفسكم ولا تعوّلوا على الأجيال أو رعاية الأدباء، قلت له: أنتم جيل رواد، هل تعتقد أن جيلكم كان جيلًا محظوظًا؟

ـ لا.. جيلنا لم يكن محظوظًا. فقد ولد في زمن الغيرة والتباغض، وشعراؤه الذين يدّعون تطويره هم آفته، يقتلونه بالحسد والمكائد. والشِّعر لا يزدهر إلا بالمحبة والنقاء، والعداوة والغيرة تقتلان الشِّعر.

بدا لي وكأنه يعبِّر ضمنيًّا عن أزمته الداخلية ومرارة تجاربه مع أصدقائه الأدباء، فسألته ما إذا كان يعتقد أن جيل النهضة الشعرية الحديثة الذي سبقهم جيل الرصافي والزهاوي والحبّوبي وعلي الشرقي والصافي النجفي والجواهري كان أكثر حظًّا، فأجاب: نعم، كانوا جيل نهضة شعرية حقيقية وأكثر إحساسًا بالمسؤولية الأدبية، كان التنافس بينهم أدبيًّا خالصًا،



وعلى جانب كبير من القيم الأخلاقية التي جعلتهم يحتفظون بصداقتهم لبعضهم، على الرغم من كل الخصومات.

لم يكن يبدو عليه الارتياح وهو يخوض هذا الموضوع، حاولت تحويل مجرى الحديث لكنّه فاجأني وهو ينظر إلى ساعته قائلًا: لا بد من أن أعود الآن إلى البيت، فأنا أسكن حاليًّا في منطقة الباب الشرقي ويمكنك أن تزورني في أي وقت. وأعطاني عنوانه (وأظنه في ذلك الوقت قد ترك البيت الذي كان يسكن فيه بمنطقة الأعظمية مع عمّته «آسيا» وسكن في منطقة «السنك» المتفرعة من شارع «الرشيد» حيث سمعنا أن صديقه الشاعر «ألفريد سمعان» قد استأجر له بيتًا ليقيم فيه مع زوجته السيدة «إقبال عبد الجليل» التي تزوجها حديثًا). شكرته بامتنان، كانت الساعة قد اقتربت من الثامنة مساءً فغادرنا النادي متجهين نحو محطة «الباص». خرجنا من الباب الخلفي للنادي، المؤدي إلى الجانب الأيمن لمنطقة «الوزيرية» ثم انعطفنا يسارًا إلى الشارع العريض المؤدي إلى محطة الباص رقم (7) الذي يسير بين منطقة «الوزيرية» و«الباب المعظم» الذي ينقل يوميًّا مئات الطلبة والطالبات من وسط بغداد إلى دار المعلمين العالية، ثم كلية الآداب في منطقة «الصليخ». داخل هذا الباص الأحمر العتيد، كانت تنشأ يوميًّا مختلف التعارفات والصداقات بين الركّاب من الطلبة والطالبات، وتخفق آلاف القلوب، وتتغير مصائر شتّى، وتتشعب دروب المستقبل.

ونحن متجهان إلى موقف «الباص»، التفت السيّاب يسارًا وقال: هل ترى ذاك البيت الكبير أمامك إلى اليسار؟


قلت: نعم



ـ كان هذا قسمًا داخليًّا لطالبات العالية. قلت: أعرف هذا، وهو لا يزال كذلك. قال: يوم كنت طالبًا في الدار، كنا نسمع حكايات رومانسية لعشاق هائمين يذرفون دموعهم في آخر الليل ويناجون حبيباتهم على أعتابه.

قلت له: الغريب أننا نسمع الآن الحكايات الرومانسية نفسها من وقت إلى آخر والقصص الدرامية نفسها التي يتناقلها الطلبة. هل كتبت شيئًا عن تلك الحكايات؟

ـ لم أكتب عنها إلا بعد فترة طويلة حين أستوحي الماضي فتأتي عفويًّا، على ذهني في ثنايا القصائد التي يربط بينها الحس المأساوي، صور الماضي المختزنة في ذاكرتي هي دائمًا أقوى محفزاتي الشعرية، الحاضر قلما يحرّكني في بعده الزمني الآني مع تأثري به نفسيًّا، لكن الماضي الذي هو بلورة للحاضر، هو عندي معين الشِّعر، وهذا ما ظهر في قصائدي عن «جيكور» و«بويب» وأجواء قريتي التي كنت أحن إليها حتى وأنا في بغداد. ساعتها كنا قد وصلنا إلى موقف «الباص»، لمحنا «الباص» رقم (7) مقبلًا من بعيد، صافحني السيّاب بحرارة وهو يقول:

ـ أشكرك كثيرًا وأرجو أن نتواصل.

ـ سأفعل، قلت له.. بعد أن شكرته على حضوره الأمسية، ساعدته على الصعود إلى «الباص»، لوّح لي بيديه الناحلتين.. ثم اختفى بين الركاب.

شعرت ساعتها بحزن شديد، كما لو أن هاجسًا بداخلي يشعرني بأنني لن أراه مرة أخرى، فقد شعرت حقًّا بالألفة إزاءه، على الرغم من قصر اللقاء. فهو من النوع الذي تألفه النفس سريعًا. وتعاطفت كثيرًا مع وضعه النفسي والمادي، فهو لم يُشِر إلى فصله من وظيفته وبقائه بلا عمل ولا مورد رزق، ولم يذكر قطّ حاجته إلى المال. وهنا أستحضر ما كتبه المترجم



والأديب «نجيب المانع» في سيرته الذاتية «ذكريات عمر أكلته الحروف» عن السيّاب.. حين كانا يعملان في شركة نفط البصرة، إبان العهد الملكي، وكان عملهما ينحصر في نقل أرقام صناديق البضائع وتدوينها في بطاقات خاصة، يستذكر «المانع» تلك الأحداث بألم ويقول: «شيء لا إنساني لشاعر مثل بدر شاكر السيّاب، أن يتصوّر المرء شاعرًا ثري الإحساس، مفعمًا بالجوع للدنيا، يقضي ثماني ساعات كلّ يوم في نقل أرقام صناديق إلى البطاقات مئات المرّات كلّ يوم، وكان المدير الإنكليزي يعامله بجفاء وينهره أحيانًا بسبب تقصيره في العمل، وفي نهاية المطاف يفصله نهائيًّا، بدعوى كثرة شرود ذهنه وتقصيره في العمل». والواقع أن حياة السيّاب الوظيفية كانت سلسلة متواصلة من الفصل والطرد من العمل لأسباب سياسية، في كل العهود العراقية، بدأت منذ العهد الملكي حين بدأ حياته الوظيفية الأولى مدرسًا للغة الإنكليزية في ثانوية الرمادي، حيث فصل منها عام 1949، وفي العهد الجمهوري فصله البعثيون حال تسلُّمهم للسلطة عام 1963 ولم يشفع له تأييده لهم وهجاؤه لعدوّهم عبد الكريم قاسم الذي ساعده بالمال كي يعالج في لبنان وأوروبا، وهذه كانت أحد تخبطات السيّاب ومصالحاته وتقلباته التي لم تنفعه في شيء ولا تنمّ عن حصافة وعميق خبرة. والواقع أن السيّاب كان يبخس نفسه أحيانًا، وكأنه يجهل قيمته الأدبية العالية فينخرط في مدح من هم دون قدره، ولا يستحقون منه ذلك، وكمثال على ذلك مدحه لـ «مزهر الشاوي» مدير الموانئ في البصرة واللواء في الجيش، حيث كان السيّاب يعمل محررًا أدبيًّا في مجلته (الموانئ). ثم تلك المجاملات لبعض شعراء مجلة «شِعر» الذين لا يستحقون منه ذلك.

هذه المواقف التي تحطّ من قدر الشِّعر والشاعر لم تكن تصدر عن



قناعة ذاتية، بل كان دافعها التقرّب من المؤسسات الثقافية وتسهيل عملية النشر في بيروت، وقد أساءت إلى سمعة السيّاب وجعلته يندم عليها لاحقًا. ولعلّنا مع هذا، نلتمس له العذر، إذا تعاطفنا مع ظروف مرضه والإجحاف الذي لحق به، ومعاناته من التهميش والعزلة.

بعد هذا اللقاء لم تتح لي مع الأسف، فرصة الوفاء بوعدي للسيّاب في أن أزوره وألتقيه ثانية، على الرغم من توقي الشديد لذلك. فقد اضطربت الأوضاع السياسية في العراق واحتدم الصراع بين حكومة نوري السعيد والقوى الوطنية المعارضة التي توصلت إلى اتفاق بتشكيل الجبهة الوطنية التي ضمّت كل الأحزاب العراقية المعارضة يومذاك، والتي مهدت لإسقاط الملكية في العراق.

ولم تمض أشهر قليلة حتى انفجرت ثورة الرابع عشر من تموز 1958 التي أسقطت النظام الملكي وأقامت الجمهورية، حيث دخل العراق بعدها في دوامة الصراعات الحزبية الدموية والاحتراب السياسي العنيف بين مختلف الفئات الوطنية، والذي انتهى باغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم قائد الثورة واستيلاء حزب البعث على الحكم عام 1963، واعتقالي في سجن (خان الهنود) بمدينة النجف حيث كنت مدرسًا في «متوسطة الخورنق».

من يومها، دخلت حياتي في مسار مختلف، وكانت بداية لغربتي الطويلة التي بدأت بالرحيل إلى الكويت، مرورًا بمدن العالم، مورشيوس (في المحيط الهندي) والجزائر في شمال إفريقيا، وانتهت بلندن، في المملكة المتحدة.

أذكر في اليوم التّالي لأمسية السيّاب، أنني التقيت في «المقهى



البرازيلي» الكائن في نهاية شارع الرشيد، قرب الباب الشرقي، والذي كان يومها ملتقى مفضّلًا للأدباء والشعراء، التقيت الشاعر عبد القادر رشيد الناصري للمرّة الثانية، إذ كان لقائي الأول به في «مقهى البلدية» حيث كان بصحبة الشاعر القومي المعروف «كاظم جواد» زميله في «المتوسطة المركزية» بمدينة الناصرية.

لقد وجدته في «المقهى البرازيلي» جالسًا مع عبد الملك نوري ونزار عباس وفؤاد التكرلي وعبد الكريم الأمين (أمين مكتبة الناصرية)، عرّفني بهم جميعًا، إذ لم أكن قد رأيتهم من قبل (باستثناء الأمين الذي كنت أعرفه من خلال زياراتي لمكتبة الناصرية)، لكنّني قرأت بعض كتاباتهم. لم أشعر بالارتياح لعلامات الغرور والأرستقراطية الواضحة على مظهر عبد الملك والتكرلي، في أثناء حديثهما في الجلسة. ولم أشعر بالأسف لعدم لقائي بهما مرّة أخرى.

كان «الناصري» الذي حضر أمسية السيّاب، من أكثر الشعراء العراقيين شهرة في العراق والعالم العربي في ذلك الوقت. وكانت قصائده تنشر في معظم العواصم العربية. قال لي مرّة إن كثرة الطلبات على قصائده جعلته يكتب وهو يمشي في الشارع، ويكتب في «الباص» في طريق الذهاب والعودة إلى البيت ويكتب حتى في «الحانة» نظرًا إلى ضيق الوقت.

كان بعض الأدباء في بغداد يشبّهونه بالشاعر والمسرحي الإيرلندي «أوسكار وايلد» لوسامته وبوهيميته ورِقّة شِعره.

كانت «للناصري» مساجلات أدبية معروفة على صفحات المجلات الأدبية العراقية مع العلّامة محمد بهجت الأثري والدكتور الشاعر عبد الرزاق محيي الدين وبعض أساتذة الجامعات، كشفت عن سعة اطلاعه



على التراث العربي ومعرفته العميقة باللغة العربية وآدابها، على الرغم من أنه لم يكمل دراسته الثانوية، وكان عصاميًّا، اعتمد على جهده الذاتي في تثقيف نفسه، حتى صار علمًا من أعلام الأدب في العراق.

بعد أن انفضّت الجلسة في «المقهى البرازيلي» اقترح «الناصري» أن نخرج معًا ونتمشى في شارع الرشيد. أحسست أنه على الرغم من الفارق في السن، فإنه كان يرتاح لصحبتي ويأنس بوجودي، ربما لأنّني أذكّره بمدينته «الناصرية» ويستعيد من خلالي بعضًا من ذكرياته القديمة وطفولته هناك.

سرنا باتجاه «ساحة الأمين» ثم مررنا بمقهى «كافيه سويس» إلى الجانب الأيسر من شارع الرشيد، وهو المكان الثاني المفضّل لدى الأدباء في بغداد بعد المقهى البرازيلي. ثم عبرنا الشارع نحو «المقهى المربعة» وانحدرنا خلال الزقاق الضيّق المتفرع من شارع الرشيد، حيث المقاهي والمطاعم الشعبية المكتظة وبعض الحانات الصغيرة ذات الأبواب الضيّقة التي لا توحي مداخلها بأنها حانات شرب أو أمكنة لهو.

كانت روائح الأكل والشواء تملأ المكان، وزحام الناس وعربات الباعة تسد هذا الزقاق القديم الذي لا يمكن أبدًا السير فيه إلّا على الأرصفة الرطبة التي تنزّ تحت أقدام المشاة.

قلت «للناصري»: منذ أكثر من نصف ساعة، ونحن نمشي، إلى أين أنت سائر بنا؟ قال: لا عليك. وصلنا، أردت فقط أن أُريك هذه الحانة، مكاني المعتاد مع أصدقائي. ثم دفع بابًا قديمًا ودخلنا. وإذا نحن داخل حانة واسعة ملأى بالطاولات والكراسي الخشبية السوداء، فيها زوايا متعدّدة تحتلها مجموعة من الزبائن من أعمار شتّى، بينهم موظفون وشباب وعمال، لكن الجوَّ كان هادئًا من دون صخب خلافًا لما عرف



من أجواء الحانات، وكان الزبائن يدخنون ويتهامسون، وكأنهم غارقون بأسرارهم. كانت الجدران مغطاة بلوحات قديمة، وصور لأشخاص وزعماء عراقيين وأجانب، ورؤوس حيوانات محشوّة بالقش ومصفوفة على الرفوف، وفوانيس قديمة معلقة، أما (الكاونتر) فكان مرتبًا نسبيًّا، والكؤوس وزجاجات الشراب مرصوفة باعتناء. اختار «الناصري» طاولة فارغة في الزاوية الخلفية، فاتجهنا إليها وجلسنا. قال: هذه حانتي المفضّلة. «حانة القطّ الأسود». قلت له: هل حقًّا اسمها كذلك، لأنّني لم أرَ لافتة مكتوبًا عليها هذا الاسم حين دخلنا؟

قال: لا توجد لافتة أنا أطلقت عليها هذا الاسم، وصار أصدقائي يسمّونها كذلك. سألته: ومن أين جئت بهذا الاسم؟ قال: هل قرأت قصص «ادغار ألن بو» الأميركي؟ (وكنت يومها في الحقيقة لم أقرأ له شيئًا) فقلت: لا، لكنّني قرأت شيئًا عن حياته المأساوية. قيل إنه كان يُسرف في الشراب وإنه مات مبكرًا فوق مجاري أحد شوارع المدينة.

قال: أعرف مأساته، لكنه كاتب عظيم، أحيانًا تنتابني حالة تشاؤم ويأس، من أنني قد ألاقي المصير نفسه.

(والغريب كأنه تنبّأ فعلًا بمصيره بعد ذلك)[1].

(1) ولد عبد القادر رشيد الناصري في مدينة الناصرية (جنوبي العراق) عام 1920 لأبوين كرديين نزحا من السليمانية واستوطنا مدينة الناصرية. بدأ تعليمه في المدرسة المركزية الابتدائية ثم انتقل إلى المتوسطة المركزية فيها، ولم يكمل دراسته. انتقل إلى بغداد وعمل في الصحافة، وبدأ ينشر قصائده التي كشفت عن موهبة ونبوغ مبكر، حتى ذاع صيته في العراق والعالم العربي. اتصل بالجواهري ومشاهير الأدباء آنذاك. أوفد إلى باريس عام 1950 لإكمال دراسته لكنه لم يكمل. دواوينه الشعرية :مجلة «ألحان الألم» «حرية وجمال»، «صوت فلسطين»، «ديوان الناصري» في ثلاثة أجزاء. توفي عام 1962، بعد أن تدهورت نفسيته وأدمن على الشراب، حيث عثر على جثته ميتًا في أحد شوارع بغداد. ثم دفن في مقبرة الغرباء في الباب المعظّم، وهو في أوج شبابه وعطائه الإبداعي.



كان «الناصري» في تلك الأيام يعمل موظفًا في أمانة العاصمة، وظيفة هزيلة لا تليق بقدره كشاعر معروف، جعلته يشعر بالغبن والحيف، فأقبل على الشراب لكي ينسى همومه وإهمال الدولة له.

قلت له: لا تقل هذا، أنت مهموم اليوم، فقد كنت صامتًا طول الطريق ونحن نمشي إلى هذا المكان.

قال: أنا اليوم مهموم فعلًا.. قلت لك إنني أحببت «إدغار ألن بو»، فهو قد كتب قصة غريبة عنوانها «القطّ الأسود» ظلت عالقة بذهني[1]. وأوحت إلي قراءتها بأشياء كثيرة، فاستوحيت منها هذا الاسم وأطلقته على هذه الحانة التي جعلني ترددي الكثير عليها، أحبها واكتشف مزاياها. مع أنها قد تبدو لمن يدخلها للمرة الأولى، وكأنها بيت قديم مهجور.

ـ إنها تبدو فعلًا كذلك من الخارج.

ـ صحيح، ولكن ما إن يدخلها الداخل ويألف أجواءها حتى يرى فيها حانة مختلفة لا تضاهيها أيّ حانة من حانات بغداد القديمة، وخصوصًا جوّها الهادئ، هل لاحظت هدوء الزبائن؟ إنها تريحني من همومي.

صمت قليلًا، وكأنه تذكّر شيئًا:

ـ هل تعرف لماذا جئت بك إلى هنا؟

ـ لا.

ـ أنا اليوم حزين جدًّا، فقد عدت أمس من «الناصرية» حيث حضرت جنازة والدي.

(1) ترجم «نجاتي صدقي» مجموعة من القصص القصيرة لإدغار ألن بو، نشرت في بداية الخمسينيات. لا أدري إن كان «الناصري» قد قرأ أيضًا المجموعة القصصية لنجيب محفوظ «خمّارة القطّ الأسود» التي تحمل الاسم نفسه.



صدمتني هذه المفاجأة الحزينة، عزيته وأعربت له عن أسفي الشديد وقلت مواسيًا:

ـ الله يرحمه.. كان طيبًا ومحبوبًا من الناس، كنت دائمًا أراه جالسًا خلف «دكانه» في «السوق الكبير» وكان متمسكًا بلباسه وزيّه الكردي.

ـ هذا صحيح، ولكن لم يكن ذلك عن تعصُّب قومي، بل كان يجده مريحًا، ومتماشيًا مع العادة والتقليد.

بعد وفاة والدي، ووالدتي قبله، لم يبق لي أحد هناك، وقد تكون تلك آخر زيارة لمدينتي.

قال «الناصري» بشكل مباغت: هل تعرف أن بدر شاكر السيّاب كان يأتي إلى هذه الحانة؟

ـ أحقًّا كان يأتي إلى هنا؟

ـ نعم.. وكنت التقيه هنا أحيانًا. فهو غالبًا ما يأتي بعد أن ينهي عمله في جريدة «الشعب» القريبة من هنا، حيث كان يعمل مترجمًا. أحيانًا أدخل فأجده جالسًا في زاوية يشرب أو منهمكًا في الكتابة. وما إن يراني حتى يدعوني إلى مشاركته الجلسة.

السيّاب إنسان طيب، أنا أحبه حقيقة، ناهيك عن كونه شاعرًا موهوبًا. لكن المشكلة أنه أرهق نفسه كثيرًا في الصراع السياسي الذي جلب له متاعب كثيرة.

ـ ربما اعتقد أنه يصلح لهذا الدور، وأن السياسة قد تصلح الأوضاع الاجتماعية.

ـ لا.. السيّاب لا يصلح للسياسة، والأحزاب لا تصلح شيئًا. السيّاب



يصلح فقط للشِّعر. وقد أضاع وقتًا طويلًا في انتماءاته الحزبية، كان يمكن أن يستغله في الشِّعر والإبداع.

ـ لا بد من أنه كتب قصائد كثيرة في هذه الحانة..

ـ اعتقد ذلك، لكنها في عمومها قصائد سياسية مجاراة لتلك المرحلة ولا ترقى إلى مستوى قصائده الوجدانية الرفيعة.

ـ هل قرأ لك بعضًا من تلك القصائد؟

ـ لا. السيّاب لا يحب قراءة قصائده لأحد.

ـ ألم تطلب منه يومًا ذلك؟

ـ لا.. كنا ننشغل دائمًا في الحديث عن الأدب في أثناء الجلسة. ثم أردف قائلًا: هل تعرف أن السيّاب اختبأ مرةً في هذه الحانة.. من العصر وحتى ساعة متأخرة من الليل؟

ـ السيّاب اختبأ هنا؟

ـ نعم كان هاربًا هو ورفاقه من مطاردة الشرطة في أثناء مشاركتهم المظاهرات. كثير من الناس لا يعرفون هذا. كانت الشرطة تلاحقهم في الأزقة والشوارع القريبة من هذا المكان. والسيّاب كان محظوظًا يومها حين لم تستطع الشرطة القبض عليه، فقد خرج في آخر الليل متخفيًا من هذه الحانة، (ثم أردف ضاحكًا) متخفيًا «كالقطّ الأسود» في ظلام الليل الحالك.

ـ هل شاهدته في المظاهرات؟

ـ لا. جئت متأخرًا ذلك اليوم فوجدته هنا، وروى لي تفاصيل ما حدث، وقد ساعدته بعد ذلك على الخروج من هنا.

قلت «للناصري»: أنت حضرت الأمسية، ما رأيك فيها؟



قال: نعم حضرت، لأنني كما قلت لك، احترم السيّاب وأقدرّ مكانته الأدبية. كانت أمسية ناجحة وكان السيّاب صادقًا وهو يعبّر عن وجدانه وأحاسيسه الشعرية، وقد لمست كم كان الجمهور منسجمًا ومتفاعلًا مع ما يسمع من قصائده. إني أحيي «العالية» على هذه المبادرة، فالسيّاب يستحق ذلك.

ثم بدأ الشاعر «الناصري» يحدّثني كيف ذهب صباح هذا اليوم، قبل لقائنا في «المقهى البرازيلي» إلى الإذاعة العراقية، حيث سجّل قصيدة جديدة (كان الناصري محسوبًا على النظام الملكي وعمل لفترة في إذاعة بغداد) وأنه التقى هناك «سميرة عزّام» واصطدم معها، وعنّفها لأنها رفضت إذاعة التغطية الصحفية التي كتبها الصحفي والكاتب الإذاعي «جميل الجبوري» لأمسية السيّاب، مدّعية أن الإدارة هي التي تدخلت ورفضت إدراجها في البرنامج.

(سميرة عزام أديبة فلسطينية كانت تقدم برامج إذاعية أدبية من إذاعة بغداد إبان العهد الملكي، وقبلها كانت تعمل في إذاعة الشرق الأدنى).

بعد أشهر قليلة وفي عام 1958، سقط النظام الملكي، وبدأتُ أعمل في الإذاعة مساءً مقدمًا لبعض البرامج الأدبية وأنا مازلت طالبًا في الجامعة.

قدّمت يومها برنامج «الركن الأدبي»، ثم برنامج «كتاب الأسبوع» الذي استمر لسنوات عدة.

حين دخلت الإذاعة، سألت عن «سميرة عزام» فقيل لي إنها تركت العمل، أو من المرجّح أنها فُصِلت من الوظيفة وقد سمعنا بعد ذلك أنها توفيت في حادث سير في مدينة «جرش» بالأردن عام 1968، كانت أديبة قاصة لها مجموعات قصصية عدة أشهرها «أشياء صغيرة».



في حلقة من برنامجي «كتاب الأسبوع» قدمت ديوان السيّاب «أزهار ذابلة» الذي طبع لأول مرة عام 1947 في القاهرة. تحدثت فيه عن مكانته الشعرية وقرأت نماذج من قصائده، على الرغم من اعتراض بعض المسؤولين وبعض الجهات الإدارية، وكان ذلك بفضل ليبرالية وتفتح الشاعر كاظم السماوي الذي كان يومها مديرًا عامًّا للإذاعة، وصديقًا مقربًا من الزعيم عبد الكريم قاسم، حيث أتاح للعاملين فسحة من الحرية والتعبير عن الرأي الشخصي، أكثر مما كانت في عهد سلفيه من مدراء الإذاعة السابقين، أمثال الضابط العسكري «سليم الفخري»، والكاتب الروائي «ذنون أيوب» الذي جاء بعده، ولم يستمر طويلًا في إدارة الإذاعة. ويبدو أن السيّاب استمع إلى البرنامج حين إذاعته، وفرح به وعدّه إنصافًا لحقّه المهضوم، حتى إنه ذكّرني به حين التقيته في الكويت لآخر مرة.



الفصل الخامس

الثّورة وتهميش السيّاب

أتوقف قليلًا عند هذه الفترة من عملي في إذاعة بغداد، نظرًا إلى علاقتها بالثقافة العراقية والحركة الأدبية الجديدة التي ظهرت في العراق إبّان العهد الجمهوري.

فقد غيّرت الثورة التي كانت معادية للغرب والمنسحبة من حلف بغداد، طبيعة المسار السياسي في العراق الذي أدى بدوره إلى تغيير حياة الناس وطبيعة تفكير الفرد العراقي، بعد أن أتيحت له فرص المشاركة في الحياة السياسية عبر المنظمات الجماهيرية والأحزاب والجمعيات الشعبية والمدنية التي وفّرها له النظام الجديد.

فما إن سقط النظام الملكي، حتى برزت تلك الحركة المتدفّقة التي شملت كل الميادين الفكرية والثقافية والأدبية، إلى جانب ميادين المسرح والسينما والفنون التشكيلية، وبقية الفنون الأخرى.

فقد بدأت كل الطاقات المبدعة، المفعمة بالوطنية والمبتهجة بواقعها التحرري الجديد، تتنفّس هواء الحرية، وتعمل لبناء عراق جديد، لطالما حلمت به في ليلها الطويل مزدهرًا بثقافة تقدمية إنسانية، عراق يحيا فيه الإنسان حرًّا كريمًا من دون قمع أو خوف.



بدأت تلك الحركة النهضوية تشهد في بغداد بداية ازدهار يحمل ألقًا حضاريًّا واعدًا، يبشّر بمرحلة جديدة في تاريخ العراق الحديث، قبل أن تحدث الانتكاسة نهاية عام 1959 إثر تفاقم الخلافات بين حكومة الثورة والحزب الشيوعي العراقي من جهة، واندلاع المواجهة المسلّحة بين الأكراد والحكومة عام 1961، من جهة أخرى.

لقد قامت الإذاعة بدورها الإعلامي في هذا المجال. فبدأت حملة واسعة لاستقطاب الأدباء والفنانين والاستفادة من خبراتهم ومواهبهم، من خلال مساهمتهم في كتابة البرامج والأحاديث والتمثيليات الإذاعية والكتابة عن المسرح والسينما والفنون التشكيلية، بالإضافة إلى إذاعة الندوات السياسية والمحاضرات التثقيفية، مما ساعد على نشر وبلورة وعي جديد بين أوساط الجماهير، بدأ يظهر من خلال نظرة جديدة إلى واقعهم ومشاركتهم في بناء بلدهم. وبتشجيع من النظام الجديد، ظهرت للحزب الشيوعي في تلك الآونة سيطرة واضحة على الحياة الفكرية والسياسية، وهيمنة شاملة على الشارع العراقي المتحمّس من خلال مشاركته في المظاهرات العامة والمناسبات الجماهيرية المتعددة. وسط هذا المناخ السياسي والاجتماعي العام، بادر عبد الكريم قاسم بتنفيذ أول مبادئ الثورة، فسمح بإجازة الأحزاب والنقابات المهنية وتأسيس الصحف الوطنية، فظهر لأول مرة اتحاد للأُدباء العراقيين برئاسة الشاعر محمد مهدي الجواهري.

أما في إطار الحكومة، فقد أنشأ عبد الكريم قاسم أول وزارة للإعلام، واختار لها شخصية أدبية وطنية معروفة، وهو الدكتور «فيصل السامر»، الكاتب والمؤرخ وصاحب كتاب «ثورة الزنج» الذي يُعدّ من الكتب العلمية الرائدة عن توثيق ثورة الفلاحين والزنوج في البصرة ضد الحكم العباسي في القرن الثالث الهجري.



وفيصل السامر هو صديق بدر شاكر السيّاب وابن مدينته، وهو الذي كلّفه السيّاب بحمل مخطوطة ديوانه «أزهار ذابلة» ليطبع في مصر، حيث كان السامر يدرس للحصول على شهادة الدكتوراه في مادة التاريخ بجامعة القاهرة. وقد صدر الديوان فعلًا في نهاية عام 1947. كما حمل «السامر» أيضًا مخطوطة أخرى للسيّاب هي «بين الروح والجسد» وهي ملحمة شعرية كتبها السيّاب فيما يقارب ألف بيت وأرسلها إلى الشاعر المصري «علي محمود طه» لكتابة مقدمة لها، لكن وفاة الشاعر المفاجئة أوقفت هذا المشروع.

يذكر في هذا الصدد أن الشعراء العراقيين في تلك الآونة كانوا شديـدي الإعجاب بشِعر علي محمود طـه منذ أن سحرهم ديوانه «أغاني الملاح التائه»، حتى إن نازك الملائكة كتبت سلسلة مقالات عنه، وكلّفها معهد الدراسات العربية في القاهرة بإلقاء محاضرات عدة عن شِعره، صدرت بعد ذلك في كتاب عنوانه «شِعر علي محمود طه» عام 1965.

في تلك الفترة، صدرت لأول مرة جريدة علنية للحزب الشيوعي العراقي، هي جريدة «اتحاد الشعب» وهي امتداد فكري وإيديولوجي لجريدة «القاعدة» التي كانت سرّية في العهد الملكي. كما صدرت أيضًا جريدة «التآخي» لسان حال الحزب الديموقراطي الكردستاني، تحقيقًا لمبدأ التوازن بين العرب والأكراد.

كانت «اتحاد الشعب» من أكثر الصحف العراقية تأثيرًا وانتشارًا. ومازلت أذكر تعرّفي إلى أشهر محرريها وأكثرهم شعبية، وهو «عبد الجبار وهبي»، القيادي الكبير في الحزب الشيوعي العراقي.

كان ذلك في أثناء زيارة لي مع الشاعر «رشدي العامل» إلى مقر



الجريدة، والتقائي كذلك لأول مرة بالشاعر سعدي يوسف الذي كان يشرف على الصفحة الثقافية فيها.

كان عبد الجبار وهبي يكتب أهم زاوية يومية في الجريدة، يوقّعها باسم «أبو سعيد» وكانت مقروءة على نطاق واسع، بل كان يقرأها حتى الوزراء، والمسؤولون الحكوميون في مكاتبهم قبل أن يبدأوا عملهم الرسمي، لأنهم يعدُّونها «بوصلة الحزب» ولسانه المعبّر، يعرفون من خلالها رأي الحزب فيما يدور من أحداث سياسية جارية سواء داخل العراق أو خارجه. وكان عبد الجبار وهبي (الذي أعدمه البعثيون بعد انقلاب عام 1963) من أكثر الشخصيات العراقية تأثيرًا في حياة الشاعر بدر شاكر السيّاب.

يذكر «محيي الدين إسماعيل»، صديق بدر أن أهم شخصيتين أثّرتا في حياة السيّاب، هما «عبد الجبار وهبي» و«فيصل حبيب الخيزران»، أحد قادة حزب البعث العربي الاشتراكي الذي توطدت علاقة السيّاب به بعد أن غيّر مساره السياسي.

في تلك الفترة، وفي أثناء عملي في الإذاعة، تعرفت في مقهى «البلدية» بالباب المعظم، وأحيانًا في مقهى «البيروتي» بالكرخ، إلى نخبة من الإخوة الشعراء الشباب الواعدين، الذين صاروا بعد ذلك شعراء معروفين في الساحة الأدبية، وفي مقدمهم سامي مهدي (الذي صدرت مجموعتي الشعرية الأولى «كلمات طيّبة» بالاشتراك معه ومع أصدقائي الشعراء الآخرين: سلمان الجبوري، وهادي العلوي، وجواد الحطاب، وموسى النقدي عام 1959).

كما تعرفت إلى الشعراء: محمود البريكان، ومحمد سعيد الصكار،



وألفريد سمعان ورشدي العامل، الذين هم أصدقاء مقربون من السيّاب. وكان رشدي العامل أقربهم اليّ بحكم النشاط الطلابي، قد نشر لي قصائد في مجلة «اتحاد الطلبة» التي كان يشرف على تحريرها حين كان طالبًا في كلية الآداب، كما نشر لي قصائد أخرى في مجلة «الأديب المعاصر» حيث كان محررًا فيها، والتي كان يشرف على إصدارها «اتحاد الأدباء العراقيين».

كما تعرفت، كذلك، إلى نخبة من القصاصين والروائيين الشباب آنذاك أمثال موفق خضر وغازي العبادي وخضير عبد الأمير، وموسى كريدي، وجمعة اللامي ونزار عباس، إلى جانب مجموعة من الصحافيين والمخرجين السينمائيين، أمثال قاسم حول، ومحمد كامل عارف، وصالح سلمان وجيان، الذين كانوا يساهمون في الكتابة للإذاعة.

وبفضل صديقي وزميلي في ثانوية الناصرية الفنان النحات إسماعيل فتاح الترك، تعرفت في تلك الآونة إلى أساطين الفن والرسم في العراق. لقد كان إسماعيل يصطحبني إلى «معهد الفنون الجميلة» الذي كان يقع قبالة البلاط الملكي في الأعظمية، حيث كان يدرس.

في هذا المكان الذي كان يُعدّ المنارة المشعّة للفن الحديث في بغداد، عرّفني إسماعيل إلى أساتذته: فائق حسن، وإسماعيل الشيخلي، وخالد الرحال وعطا صبري وجواد سليم (صاحب نصب الحرية) والصديق الحميم للشاعر «بلند الحيدري»، الذي كان دائم الزيارة لأصدقائه الفنانين هناك.

عرفت من «بلند» يومها عمق الصداقة المشتركة والإعجاب المتبادل بينه وبين بدر شاكر السيّاب، الذي كان يزور معهد الفنون الجميلة كذلك



ويلتقي أصدقاءه الفنانين هناك. كان السيّاب معجبًا بشِعر «بلند»، وقد كتب عنه يقول: «بلند الحيدري، هذا الشاعر الممتاز الذي اعتبر العديد من قصائده الرائعة أكثر واقعية من مئات القصائد التي يريد منا المفهوم السطحي للواقعية أن نعتبرها واقعية». وقد ظهرت هذه الشهادة على الغلاف الخلفي للديوان الأول للحيدري «خفقة الطين».

يذكر «بلند» أن «السيّاب» كان يأتي أحيانًا إلى «مقهى واق واق» في منطقة الأعظمية، وهو المقهى الذي أسسه بلند مع مجموعة من دعاة التجديد والحداثة الأدبية أطلقوا على أنفسهم «جماعة الوقت الضائع» وكانت تضم جواد سليم، ونزار سليم، وعدنان رؤوف، وحسين مردان وغيرهم.

وفي سيرته الذاتية كتب بلند عن هذه الجماعة: «في عام 1946 أقمت مع نخبة من الإخوة الأدباء الشبان دارًا للنشر باسم «الوقت الضائع» صدر منها عددان من مجلة حملت اسمها، وكنا نحررها في المقاهي، ومجموعة قصصية باسم «أشياء تافهة» لنزار سليم، وديواني «خفقة الطين» الذي تكفل عمّي بطبعه على نفقته. ثم قمنا بتأسيس مقهى لنا قرب النادي الأولمبي وسمّيناه «مقهى واق واق» وأردفناه بجملة أخرى «ملتقى الأدباء والشعراء والعشاق».

وتحول هذا المقهى بمرور الأيام إلى منتدى أدبي يُناقَش فيه أحدث ما يجد من أفكار حول الحداثة في الشِّعر والفلسفة الوجودية، والمدارس الأدبية المعاصرة، وكان يتردّد عليه عدد كبير من الأدباء والفنانين أمثال جبرا إبراهيم جبرا وعبد القادر الناصري وأساتذة معهد الفنون الجميلة.

في هذا المقهى، خصّصوا غرفة صغيرة فوق السطح ينام فيها



«حسين مردان»، فأراحوه من غرفته البائسة التي كان يسكنها في أحد الفنادق المزرية في «الحيدرخانة».

قال بلند إن السيّاب صادف أن جاءهم مرة إلى المقهى، وسأل عن حسين مردان، الذي كان يغطّ في سبات عميق في غرفته، بعد سكرة ليلية سابقة. فصعدوا إليه وأيقظوه، فنزل وهو في «بيجامته» كي يسلّم على السيّاب الذي استقبله مبتسمًا، وهو يقول له: «أهكذا أنت دائمًا يا أبو علي؟».

غير أن أيام «مقهى واق واق» لم تدم طويلًا، اذ سرعان ما تنبّهت سلطات الأمن إلى خطورة هذا المكان «المريب» الذي يقع في «ساحة عنتر» في منطقة «الأعظمية» وبالتحديد قبالة النادي الأولمبي حيث يمرّ من أمامه موكب الملك فيصل الثاني يوميًّا باتجاه البلاط الملكي، فبادرت إلى إغلاقه، باعتباره «مكانًا مشبوهًا لمجموعة من المتمردين الوجوديين العاطلين عن العمل والخارجين على القانون».

وقد كتب، لاحقًا، عن دور هذه الجماعة الأدبية، «جماعة الوقت الضائع في العراق» وتأثيرها في الشِّعر العراقي، عدد من الباحثين، لعل أبرزهم القاص والباحث باسم عبد الحميد حمودي.

ومن بين من كان يعمل معي في الإذاعـة، إبّان تلك الفترة، أذكر مجموعة من الأصدقاء الشعراء: صلاح نيازي وصادق الصائغ، وزاهد محمد. وعن طريق زاهد، وهو شاعر شعبي اشتهر بكتابة الأغاني لعدد كبير من المغنين والمغنيات، تعرفت إلى أشهر رموز الطرب العراقي أمثال مائدة نزهت، وأحمد الخليل، ومحمد عبد المحسن، وعباس جميل وناظم الغزالي، الذي كنت ألتقيه دائمًا حين يأتي لتسجيل أغانيه



في الإذاعة، متواضعًا، يطل دائمًا بأناقته المعهودة، وأدبه الجم وابتسامته الرقيقة التي يحيّي بها كل من يصادفه من زملاء الإذاعة.

أذكر مرة أن ناظم الغزالي كان لديه موعد لإعادة تسجيل أغنيته «الحدائية» الرائعة، وهي من شِعر أحمد شوقيّ، والمأخوذة أصلًا من مسرحيته الشعرية المعروفة «مجنون ليلى». كانت هذه المسرحية قد مثلت في بغداد آنذاك. وقام بإخراجها، الفنان حقي الشبلي وفرقته في الأربعينيات، وكان الغزالي، الذي بدأ حياته ممثلًا قبل أن يتحوّل إلى الغناء، قد اشترك في تمثيل دور فيها، يتضمّن تلك الأبيات.

قيل إن الشبلي أو يوسف العاني هو الذي التقط تلك الأبيات الموحية واقترح على «الغزالي» أن يغنّيها. جاء ناظم يستعين بي، بصفتي مشرفًا لغويًّا في الإذاعة، في ضبط قراءة الأبيات قبل تسجيلها للغناء. وهي تجري على هذا النسق الجميل الذي يغريني بإدراجها كاملة لعذوبتها وصفاء كلماتها وتصويرها لأجواء قوافل الصحراء وحُداتها:

هلا هلا هيّا نطوي الفلا طيّا
وقرّب الحيّا للنازح الصّبِّ
جلاجلٌ في البيدْ شجيّة الترديد
كرنّة الغرّيد في الفنن الرطبِ
أناح أم غنّى أم للحمى حنّا
جُليجلٌ رنّا في شِعَب القلبِ
هلا هلا سيري وامضي بتيسيرِ
طيري بنا طيري للماء والعشبِ



بـالله يـــا حـــادي فتّـــش بــ «تــوبــادِ»

فـالقلـــب فـــي الـــوادي والـعقـــل فـــي الشِـعـبِ

يـــا قمـــرًا يبـــدو مـطـلعـــهُ نـجـــدُ

قـــد صنـــع الـوجـــدُ مـــا شـــاء بالـــركـبِ

وبتأثير تداعيات الأسماء وتشابهها، اقتبس السيّاب من المسرحية نفسها بعض أبيات من شوقي، وضمّنها قصيدته المعنونة «ليلى» التي مطلعها:

قرّب بعينيـك منـي دون إغضـــاءِ

وخلّنـي أتملّـى طيــف أهـــوائـــي

ويشير بـ «ليلى» هذه، إلى ممرضة شابة جميلة، قيل بأنه تعلّق بها في أثناء إشرافها على معالجته ببيروت، وأنها كانت محبّة للأدب، ولها محاولات شعرية كانت تعرضها عليه، وتطلب مساعدته في نشرها.

وبعد عودة السيّاب إلى العراق، وذهابه إلى الكويت للعلاج، صادف أن قام «علي السبتي» بزيارة إلى بيروت، والتقى «ليلى» وجاء ينقل أخبارها إلى بدر الذي بادره بشغف: «قرّب بعينيك منّي دون إغضاءِ».

وربما أثارت أبيات شوقي في «مجنون ليلى» ذكريات بدر، فضمّنها في قصيدته عن الممرضة اللبنانية «ليلى»:

«ليلــى» منــادٍ دعـــا «ليـلـى» فخفّ له

نشـــوان في جنبـــات الصـــدر عربيـــدُ

كســا النـــداءَ اسمُها ســحــرًا وحبّبـــه



حتـــى كأن اسـمهـا البشـرى أو العيــدُ

هـــل المنـــادون أهلـــوهـا وإخوتـهـا

أم المنـادون عشّـــاق معــاميـــدُ

إن يشــركونيَ فـــي «ليلـى» فـلا رجعت

جبـــال «نجــدٍ» لهـم صوتـًا ولا البيـدُ

كان معنا أيضًا فنان الشعب العراقي المعروف «يوسف العاني»، الذي كان يطلب مني أحيانًا قراءة أحاديثه الإذاعية حول المسرح وتاريخه وأعلامه المشهورين. وعن طريق يوسف وفرقته «فرقة المسرح العراقي الحديث» تعرّفت إلى أبرز أعضائها، حين كانوا يأتون لتسجيل تمثيلياتهم في الإذاعة، مثل سامي عبد الحميد، وزينب، وناهدة الرماح وشكري العقيدي، وغيرهم.

كانت هناك شخصية إذاعية لا يمكن نسيانها، فهي من أعمدة الإذاعة ومن أقدم العاملين فيها، ألا وهي شخصية رئيس قسم التمثيليات، والممثل السينمائي المخرج الإذاعي العتيد عبد الله العزاوي، صاحب الجثة الضخمة، والوجه الطفولي، والقلب الطيّب، كان يستعين بي للإشراف اللغوي على أداء الممثلين في أثناء تسجيلهم للتمثيليات التي كان يخرجها بالعربية الفصحى.

وحين تصاب أجهزة التسجيل بعطب فني، كان يأخذنا إلى القاعة الكبيرة في قسم الموسيقى المجاور، ليتم تسجيل التمثيليات.

في تلك القاعة الكبيرة ذاتها تم إعدام الزعيم عبد الكريم قاسم، بعد محاكمة سريعة مفتعلة ترأسها رفيقه في مجلس قيادة الثورة عبد السلام



عارف، وأعدم معه بعض رفاقه الآخرين من ضباط الثورة، بعد الانقلاب البعثي الذي حدث في شباط 1963.

كان عبدالله العزاوي محبًّا لعمله، حريصًا على تطوير مستوى التمثيليات، لكنه حين كان يمرض وما أكثر ما كان يحدث ذلك، يوعز إلى مساعده الممثل القدير عبد الجبار عباس، بأن يخرج التمثيليات نيابة عنه. وفي أحيان كثيرة كان يطلب من صادق الصائغ أن يتولى الإخراج بدلًا منه، لكنها مع ذلك كانت تذاع على الهواء «من إخراج عبد الله العزاوي»، مثلما اعتاد المستمعون على ذلك.

وفي إحدى المرات حين أبديت له ملاحظة حول ضرورة الحفاظ على الأمانة الفنية في ذكر اسم المخرج، قال لي بضحكته الخافتة وصوته الأبح: لا عليك، هذا جزء من أسرار المهنة الفنية، فأنا منذ ثلاثين عامًا أخرج التمثيليات، والمستمعون راضون عنها وسعداء بذلك، المهم في الفن هو إسعاد الجماهير بأيّ صورة، وأنا أقوم بذلك قدر استطاعتي. وأظنه كان محقًّا في ذلك.

كان هناك برنامج مهم، اكتسب شعبية واسعة ولا سيما بين المثقفين ومحبي الموسيقى والغناء القديم، وهو برنامج «الرفوف العالية» الذي كان يقدمه الإذاعي والإعلامي الرائد «عبد الحميد الدروبي». ويعدُّ هذا البرنامج أرشيفًا ثرًّا ونادرًا للتراث الموسيقي وللأغاني العراقية والعربية القديمة. وكان «الدروبي»، مثقفًا، ذا حسٍّ عالٍ في متابعة الموسيقى العالمية. وكان يختار المقدمات الموسيقية لأكثر البرامج التي تقدمها الإذاعة، ومن بينها برنامج «كتاب الأسبوع» الذي كنت أقدمه.

في بعض الأحيان، كان يحلو لـ«الدروبي» أن يقول، وبشيء من الزهو،



إنه يحتفظ في «الرفوف العالية» بتسجيلات نادرة للخطب والقصائد السياسية التي كانت تلقى في أثناء المظاهرات الوطنية في «ساحة الوثبة» و«ساحة السباع» وغيرها في بغداد عام 1948، والتي كانت تندّد بـــ «وعد بلفور» ومعاهدة «بورتسموث»، ومن بينها قصائد للجواهري والسيّاب، إلى جانب خُطب سياسية لرجال حُكم وساسة في العهد الملكي، مسجلة بأصواتهم.

ولم تفلح محاولاتي معه بالسماح لي بالاطلاع على تلك التسجيلات، أو سماع قصائد الجواهري والسيّاب التي كنت معنيًّا بها بشكل خاص، لأنه يعدّ «الرفوف العالية» أمانة تراثية وفنية يجب الحفاظ عليها، وأنه هو خازنها المؤتمن على صونها وحمايتها، أو هكذا يقول.

قصائد السيّاب المسجلة، (إذا ما سلّمنا بمقولة الدروبي) تمثل من دون شك تلك الفترة التي نشط فيها سياسيًّا، حين كان يتصدّر المظاهرات الطلابية والجماهيرية، ويلقي قصائده الحماسية وسط الجموع الثائرة ضد حكومة نوري السعيد المناهضة للتحرّر الوطني، والتي انتهت بسجنه مع الكثير من الشيوعيين. هذه الفترة ذاتها هي التي أعدم فيها أربعة من قادة الحزب الشيوعي، وعلى رأسهم مؤسس الحزب «فهد» بعد أن أعيدت محاكمتهم وهم في السجن واتهامهم بالمسؤولية عن أحداث عام 1948.



الفصل السادس

بدايـــة المـأســـاة

وبعد رحلة مغامـرة، معقدة التفاصيل، للخروج من الـعـراق بجـواز سفـر مزوّر، نجوتُ بأعـجوبة مـن بـراثن شرطة الحدود فـي مـخفر «صفوان» التي كادت تعيدني مرة أخرى إلى السجن، (وليس لأسباب سياسية هذه المرة).

وصلت في النهاية إلى الكويت. استقبلني هناك صديقي الشاعر «محمد الفايز»، صاحب ديوان «مذكّرات بحّار» الواسع الشهرة في الكويت. مازلت أذكر أنّني شهدت ولادة حلقاته الشعرية الأولى، حين كان الفايز يعرض عليّ، ونحن جالسان على شاطئ الخليج، مقاطع شعرية مما يكتب ليستأنس بملاحظاتي حولها. كان «الفايز» زميل طفولتي في «ثانوية الناصرية»، ولشغفه المبكّر بالأدب والشِّعر، ترك الدراسة وهاجر إلى الكويت عام 1954 مفتتحًا باب الهجرة أمام الجيل الثاني من أدباء الناصرية، أنا وأصدقائي القدامى: صلاح نيازي ورشيد مجيد وعبد الرحمن مجيد الربيعي وعبد الرزاق رشيد.

أما الرعيل الأول الذين سبقونا في الهجرة نهاية الثلاثينيات، فكان



على رأسهم الشاعران المعروفان عبد القادر رشيد الناصري وكاظم جواد. الأول استقر ببغداد ومات فيها. أما الثاني صاحب الديوان الوحيد «أغاني الحرية»، فقد امتدت غربته إلى أميركا ثم ألمانيا، حيث توفي هناك.

«محمد الفايز» الذي استضافني في شقّته بمنطقة «حولّي»، قبل أن أعيّن مدرّسًا للغة العربية في الكلية الصناعية بمنطقة «الشويخ»، كان يعمل في دائرة الكهرباء، وهو المكان نفسه الذي عمل فيه السيّاب بعد أن هرب متنكّرًا من العراق إلى إيران في الخمسينيات ودخل منها إلى الكويت.كانت تربط الفايز صلة قرابة بعائلة السيّاب. فهو من عائلة ذات أصول نجدية، يطلق عليهم «نجادة البصرة» استوطنوا في الناصرية والكويت وأبي الخصيب، وهو القضاء الذي كانت قرية «جيكور» مسقط رأس السيّاب، تابعةِ له من الناحية الإدارية.

في أحد الأيام جاءني «الفايز» ليخبرني أن السيّاب يرقد مريضًا في المستشفى الأميري منذ ثلاثة أيام.

صدمتني المفاجأة، ورجوته أن نذهب فورًا لزيارته. أخذني بسيارته، وانطلقنا مسرعَين نحو المستشفى. ونحن في الطريق بدأ يحدّثني كيف أن الشاعر الكويتي النبيل «علي السبتي» صديق السيّاب هو الذي تولّى نقله من البصرة، وهو في أشدّ حالات مرضه، حيث أنزل من الطيارة في مطار الكويت، وهو غير قادر على المشي، وكان يرتدي «دشداشة» بيضاء و«جاكيتة» رمادية، وكان بصحبة «السبتي» اثنان من الأدباء جاءا لاستقباله، وهما: الشاعر والإذاعي المصري «فاروق شوشة» والأديب الفلسطيني «ناجي علوش»[1].

(1) ناجي علوش، هو الذي اهتم مع علي السبتي بجمع شِعر السيّاب بعد وفاته، وكتب مقدمة وافية عن حياته في الديوان الذي صدر بجزءين عن «دار العودة ببيروت».



وصلنا المستشفى، وسألنا عن غرفة السيّاب. فدلّنا ممرض عراقي هناك بإشارة من يده، فاتجهنا مباشرة إلى غرفته، قاطعين الممر الطويل الذي تفوح منه رائحة العمليات والأدوية النفّاذة ووجوه المرضى المصفرّة الراقدين في الغرف المتراصّة.

دخلنا الغرفة الصغيرة، فوجدنا «علي السبتي» هناك، ولم أكن قد تعرّفت إليه شخصيًّا، ولكن بعد أن قدّمني إليه صديقي «محمد الفايز» صافحني بحرارة، متذكّرًا بعض القصائد التي كنت أنشرها في جريدة «صوت الخليج»، ثم التفت داخل الغرفة وقال: ها هو بدر.. ادخلا وسلّما عليه.

ألقيت نظرة خاطفة على السرير، فهالني ذلك الجسد المنكمش المحطّم، الذي تحوّل إلى جسد شيخ عجوز، تداخلت عظامه، وتقلّص حجمه، ربما بفعل كثرة الأمراض التي بدأت تأكل أشلاءه، فلم يبق منه غير رأس صغير وعينين منكمشتين تحدّقان ببطء، شمالًا ويمينًا، تتفحصان المكان ووجوه الزائرين. انحنيت وسلّمت عليه وهو ممدّد على السرير ويتحرّك بصعوبة ثم أقبل عليه صديقي «الفايز» وسلّم عليه كذلك.

قلت له: أستاذ بدر.. كيف حالك؟ هل تذكرني.. أنا فلان؟ (وذكرت اسمي).

فردّ وهو يبتسم: أذكرك طبعًا.. أهلًا بك، كيف حالك؟. بدا صوته واهنًا، لكن ذاكرته ما زالت حيّة، وكان دمثًا في ترحابه.

قلت له: الحمد لله.. أنا سعيد برؤيتك مرة أخرى. فابتسم قائلًا: أنا ما زلت أذكر أمسية دار المعلمين العالية وجلسة النادي، ونجاتي من هجوم قطار السدة الترابية. ابتسمت بدهشة وقلت له: أنت ما زلت تذكرها؟



قال: نعم وكيف لي أن أنساها. ثم واصل: تُراني أنجو هذه المرة من هجوم الأمراض؟.

قلت له مواسيًا: ستنجو إن شاء الله.. إنها شدة وكل شدة إلى زوال. أومأ برأسه وهو يبتسم، ثم دخل فجأة طبيب وممرضة يفحصانه ويقيسان ضغطه، التفت «علي السبتي» نحوي وهمس في أذني: بدر أجريت له عملية مساء أمس وهو متعب، علينا ألا نطيل الجلوس معه اليوم. بعد خروج الطبيب والممرضة قلت له: كيف تشعر الآن؟

ـ أنا متعب قليلًا بعد عملية الأمس.

ـ إذن أنت في حاجة إلى الراحة اليوم، سأزورك غدًا.

شدّ على يدي هامسًا: لا بد من أن أراك غدًا، اليوم لم يسمح لنا الوقت بالحديث. طمأنته بأنّني سأزوره غدًا. صافحنا «علي السبتي» الذي بقي معه، وخرجنا أنا و«الفايز».

في اليوم التّالي زرته بمفردي بعد الظهر، فوجدت عنده مجموعة من الأدباء الكويتيين جاؤوا للاطمئنان إليه، أذكر منهم الأديب عبد الله خلف (رئيس القسم الثقافي في إذاعة الكويت)، والشاعرين أحمد العدواني ومشاري الروضان، وبعد أن سلّموا عليه مودعين سألته عن حاله، فقال إنه ما زال يشعر بآلام في الظهر وأوجاع في المعدة بعد العملية.

سألته عن «علي السبتي» فقال:

ـ كان هنا صباحًا، وسيعود في المساء بعد أن ينهي عمله في الجريدة (صوت الخليج) وبدأ يثني عليه:

ـ كم هو نبيل هذا الرجل، إنه نادر المثال بين الرجال، لا أدري كيف



سيكون حالي لو لم يكن علي بجانبي. ثم سحب نسخة من «صوت الخليج» من تحت وسادته وقدّمها لي: جلب «علي» هذه الجريدة، هل قرأت قصيدتي فيها؟

ـ نعم قرأتها في مكتب «محمد الفايز» هي غريبة، تثير التساؤل.

ـ ماذا تعني؟

ـ صحيح هي شفّافة ومؤثّرة غير أنها لا تصوّر آلامك وأوجاعك مثلما يتوقّع القارئ، بل تصوّر أحلامك وذكرياتك، وكأنك لست في مستشفى، وهي قصيدة حالمة وجميلة بالتأكيد ولكن لا علاقة لها بواقعك الحالي.

ـ صدقت، الشِّعر هو تصوير الأحلام، وأنا شاعر حالم بطبيعتي. أنا من ناحية أخرى أحاول نسيان واقعي الموجع، فأكتب عن أحلامي، كرهت مستشفيات بيروت وباريس وبريطانيا ولا أريد أن أكتب عنها، فهي واقع لا أريد تصويره في قصائدي، لهذا اتّجه نحو الحلم فهو الذي يُخفّف أوجاعي وينسيني آلامي.

ـ ولكن كيف تستطيع الحلم وأنت بين الأطباء والممرضين وقناني الأدوية وغرف المرضى الراقدين جوارك؟ كيف تجد الوقت لكتابة الشِّعر وغرفتك تعجّ بالدّاخلين والخارجين؟

أطرق السيّاب برهة، وأغمض عينيه وخِلته ذهب في غيبوبة، وضعت يدي على كتفه وقلت له: أستاذ بدر هل سمعت ما قلت؟

رد قائلًا: آسف سرحت قليلًا، أعد عليّ ما قلت. أعدت عليه سؤالي فبادرني بقوله:

ـ صحيح ما قلته عن ضوضاء المستشفى والزائرين، لكنّني أنتهز دائمًا



بعض سويعات الفجر، فأنا لا أنام جيّدًا بسبب أوجاع جسدي. أنا أكتب عند الفجر، حين يكون السكون شاملًا مخيّمًا فوق ردهات المستشفى، في تلك السويعات أحاول إدخال كياني وأحاسيسي في عالم آخر، فأحس بنفسي شفافًا، وأن أوجاعي هدأت قليلًا وابتعدت عن مسارب جسدي، تلك اللحظات هي لحظات إحساسي بالشِّعر، هي لحظات نسياني لواقعي وآلامي والكتابة عن أحلامي.

بدا لي تعليل السيّاب هذا وكأنه ردّ على تساؤلاتنا المحيّرة حول قدرته على كتابة الشِّعر وهو في حالته البائسة هذه، مريضًا مشلول الحركة.

فقد كنا نندهش أنا وعلي السبتي وأصدقاؤنا الآخرون، من روعة تلك القصائد التي يكتبها شاعر مشرف على الموت، كيف استطاع أن يسيطر على لغته وأفكاره وهو يكتب بيد مرتعشة لا تقوى على الإمساك بالقلم، وعيناه متعبتان لا تدركان مواضع الأسطر على الورق!

كان «علي السبتي» أول من يقرأ قصائد السيّاب التي يتسلّمها حارّة مثل رغيف الخبز الخارج لتوّه من التنور. كان يكتب في الليل وينشر في النهار بشكل يومي تقريبًا ويسلّم «السبتي» قصيدة كل صباح لتطبع في الليل في مطابع «صوت الخليج» وتظهر صباح اليوم التّالي ليقرأها الناس طازجة مثل القهوة العربية الممزوجة بالحليب وأنفاس الهال، لكنها ممزوجة كذلك بالمرارة والمأساة وطعم الموت الوشيك.

السيّاب نفسه كان يشعر بدنوّ الأجل، ويترقّب هذا الموت الوشيك الذي صار يجد فيه خلاصه، وكأنّه «رصاصة الرحمة» مثلما عبّر عن ذلك في واحدة من قصائده الأخيرة وهو على وشك الرحيل كتبها بتاريخ 1964/7/9.



ألـيـس يــكـفـي أيـهــا الإلـــــه
أن الـــفـنـاء غـايـــة الـحـيـــاه
فـتـصـبـغ الـحـيـــاة بـالـقـتـــامْ؟
تـحـيـلـنـي ـ بـلـــا ردىً ـ حـطـــامْ:
سـفـينـة كسـيرة تطفـو علـى الميـاه
هـات الـــردى، أريــــد أن أنـــام
بيـن قـبـور أهـلـي الـمـبعثـره
وراء لـــيـــل الـــمقـبــــــره
رصاصـــة الـرحـمـة يــــا إلــــه

كنا نتساءل كيف استطاع السيّاب نسيان أوجاعه وأمراضه المتعددة التي بدأت تأكل أشلاءه شلوًا شلوًا، وكيف نسي موته الوشيك وانصرف إلى كتابة الشِّعر.

لقد كان ذلك حقًّا جزءًا من عبقريته وتفرّده، ليس في الشِّعر وحده بل في الصبر والتّحمّل وتقبّل المصير كذلك. ولعلّ هذا التساؤل، يـذكّرنا أيضًا بحالـة تلبس سيكولـوجي لا إرادي فيما كـتبه الشاعر «ت.س. إليوت» في مقالة عن «باسكال» عام 1931 وهو يعاني من مرض عضال في أحد مستشفيات لوزان «إن حدة المرض في بعض الحالات المرضية تكون مواتية للإبداع الأدبي والخلق الفني، حيث تكون الفرصة مهيّأة لانطلاق مفاجئ في التّعبير عن فكرة طال الأمد عليها وهي حبيسة في ذهن الشاعر».



كان السيّاب مستسلمًا لقدره. ولم أسمعه يتذمّر وهو على فراش المرض، ولم يجأر بشكوى «يا رب لا شكوى ولا من عتاب» أو ينحو باللائمة على الزمن أو الحظ أو سوء المصير، بل كان هادئًا مؤمنًا بالله وقدره فهو تمامًا مثلما عبّر عن نفسه، في حالة فريدة هي أشبه ما تكون بحالة متصوّف قانط، أو وليّ من أولياء الله الصالحين، يخاطب ربه بكل خشوع واستسلام:

لـك الحمـد مهمـا اسـتطال البـلاءْ

ومــهمــا اشــتــدّ الألــمْ

لـك الـحمـد إن الرزايـــا عطـاء

وإن الـمصيبــات بعـض الكـــرم

لـك الـحمـد يـــا راميًـا بـــالقَـدرْ

ويـــا كاتبـًـا بعـــد ذاك الــشـفــاء

ولهذا لم يكن الموت يخيفه أو يهمّه كثيرًا، بل كان الشِّعر هو همّه الأول طوال حياته، يكتبه بأناة ولا يتحمّس للحديث عنه، حتّى وهو مع أصدقائه الشِّعراء.

كان يزوره أدباء، يرحّب بهم وهو مبتسم، يناديهم بأسمائهم ويشارك في الحديث وهو بكامل وعيه، وذاكرته ما زالت حيّة متيقّظة، يصغي بانتباه ويردّ على الأسئلة ولا يحب الإطراء والمديح (وكان هذا طبع السيّاب) وحتى حين كانت تبدر ملاحظة مديح من أحد الحاضرين، ولو كانت صادقة من دون مجاملة، كان يحاول أن يتجاهلها أو يغيّر وجهة الحديث، فالمديح يخجله كثيرًا. ومع أن السيّاب كان مؤمنًا بقدره، كما ذكرت،



مستسلمًا لمصيره، فإنني كنت ألحظ في تلك الآونة أن حالة من الزهد واللامبالاة إزاء العالم كله كانت تغشاه أحيانًا، حالة صوفية تلبّست تفكيره وانعكست على تصرفاته، بأن لا شيء في هذا العالم يستحق الاهتمام، وأن وجود الإنسان ليس إلا عبثًا لا طائل من ورائه. ومن هنا جاء استسلامه لمصيره وتقبله اليائس لكلّ ما تخبئه له الأيام القادمة. ولهذا السبب كان يستسلم للعلاج بشكل آلي غير عابئ بالنتيجة وقليل الأمل في الشفاء.

وكان يعبّر عن ذلك بما يكتب:

يئســتُ من الشفــاء، يئستُ منه،

هدّني التعبُ

وحلّ الليل ما أطويه من سهر إلى سهر،

ومن ظُلَم إلى ظُلَم

وظهرت في هذه الفترة كثرة القروح في جسده، ربما بسبب الشلل الذي بدأ في أطرافه السفلى والذي أدى إلى ضمور أعضائه.

أما العلاج الطبيعي الذي اقترحه الأطباء فلم ينفعه، بل سبّب له كسورًا في الفخذ الأيسر. ومن يدري فقد يكون السرطان، الذي لم يكتشفه الأطباء في حينه أحد تلك التراكمات المرضية التي أصابته.

لم أشاهده يقرأ كتبًا في المستشفى، مع أن «السبتي» جلب له بعض الكتب، شاهدتها موضوعة قرب سريره، وكان يكتفي بقراءة الصحف، ربما لأن الكتاب يحتاج إلى صفاء الذهن وتركيز التفكير، وانّى له ذلك وهو المريض المشتّت الذهن، اليائس والعاجز عن تجميع شتات نفسه.

في إحدى زياراتي له، وهو ما زال تحت تأثير تلك الحالة النفسية التي



جعلته أقرب إلى كائن روحاني غير راغب في شيء، متسامحًا غير عاتب على أحد، ولا يحمل حقدًا على إنسان، في تلك الحالة حدّثته عن أوضاع الأدباء العراقيين المأساوية بعد الانقلاب البعثي عام 1963 حيث كانت الأوضاع ما زالت متأزّمة وتنذر بالمخاطر.

فقد اعتُقل يومها وعُذّب الكثير منهم، وحُكِم على بعضهم بالإعدام مثل الشاعر «بلند الحيدري» الذي نجا بعد ذلك بأعجوبة من الموت، وهرب الكثيرون إلى خارج العراق، ناهيك عمن هرب قبل ذلك كالجواهري والبياتي وصالح جواد الطعمة وغيرهم.

طرحت عليه بعض التساؤلات التي كانت تدور في ذهني منذ فترة حول ما كانت تنشره الصحافة العراقية عن خصومات السيّاب الأدبية والسياسية مع بعض زملائه من الأدباء، والانتماءات الحزبية التي ولّدت كثيرًا من العداوات والمنافسة الأدبية على الشهرة واحتلال المواقع، والتي جعلت السيّاب نفسه ضحية من ضحاياها.

ولهذا وجدتُ من المناسب أن أسمع منه كيف ينظر إليها بعد كل هذه السنين. ولا أزعم أن إجابات السيّاب التي سجلتها في تلك المحاورة، كما في بقية المحاورات السابقة، كانت حرفية تمامًا بل حاولتُ قدر استطاعتي أن أجعلها أقرب ما تكون إلى حقيقتها أو معناها العام، وذلك نظرًا إلى بُعد الزمن وارتباك الذّاكرة فأنا أشعر أحيانًا بأنّني لا أكتب ما أريده، بل أكتب ما أستطيعه، على حد قول دكتور «جونسون». حين سألته عن ذلك أجاب بأسى وهو مطرق:

ـ أنا شديد الأسى لما يحدث في العراق، لماذا أوصلوا الأمور إلى هذا الحد! أنا متألم لما يحدث لأصدقائي الأدباء من اضطهاد، ولكن الكل يتحمّل المسؤولية.



قلت له: ماذا تعني؟

ـ أعني أن الأدباء مثل الحزبيين والأحزاب السياسية لم يضعوا مصلحة الوطن في أولى حساباتهم، لقد انشغلوا بالتناحر والمكائد والمنافع الشخصية.

ـ من تقصد؟

ـ أقصد الجميع، لا أستثني أحدًا.

ـ ولكن ما ذنب الأدباء وهم لا يملكون سلطة؟

ـ الأدباء صاروا واجهة للسياسيين وللأحزاب السياسية، أغلبهم للأسف صاروا أبواقًا حزبية وكتّاب دعاية، نسوا مهمتهم كأدباء، فبدلًا من أن يدعوا لحرية الرأي، صاروا يدعون للانتقام واضطهاد الآخرين بحجة مبادئ الأحزاب.

ـ هل أنت حاقد عليهم؟

ـ لا.. أنا لا أحقد على أحد، على الرغم مما أصابني منهم، ما فائدة الحقد الآن؟ بعد أن ضيعتُ حياتي وصحّتي من أجل الأدب؟ الحياة تظلّ مهما كان أغلى من الشِّعر والإبداع!

ـ ولكن كانت لك أيضًا خصومات ومعارك حتّى مع رفاق الأمس.

ـ نعم.. ما كان عليهم أن يفعلوا ذلك معي، فقد أساؤوا إليّ ظلمًا لأنّني دعوت للحرية واحترام الرأي، وكان عليّ أن أترفّع عن الردّ عليهم ولا أرد الإساءة بالإساءة، كانت تلك تجربة مريرة، بل كانت كابوسًا يؤرقني.

ـ هل تقصد تلك المقالات الغاضبة في جريدة «الحرية» حلقات «كنتُ شيوعيًّا»؟



ـ كانت تلك وليدة الاضطهاد والأذى النفسي الذي تعرضتُ له في ظروف نفسية ومرضية صعبة، ومع ذلك كنت أتمنى لو أنها لم تحدث لأنها أساءت للجميع. لا أنكر أنّني أخطأت بل إنني كثير الخطأ، هذا هو طبعي، ولست ناكرًا ذلك لأن أخطائي علّمتني التسامح وعدم محاسبة الآخرين على أخطائهم. كان علينا جميعًا أن نترفّع عن تلك الخصومات والمهاترات، لأن الناس ينظرون إلينا كنخبة مستنيرة من مثقفي البلد.

ـ تعني زملاءك الأدباء؟

ـ ليس الأدباء فحسب، بل السياسيون وكل العاملين في الأحزاب المختلفة.

ـ ذكرت الصحافة أنك تعرضتَ للجواهري والبياتي، هل كانت بينكم خصومة أدبية؟

ـ أنا لم أكن خصمًا لأحد. أنا ضدّ الخصومات الأدبية لأنها لا تليق بالأدب، بعض دعاة السوء روّجوا للنميمة والكذب، أنا أحترم الجواهري فهو أستاذنا وشاعر كبير، ومكانته الأدبية في العراق لا يمكن أن ينال منها أحد، ولم أسمع أن الجواهري قال عني شيئًا سيئًا، فهو أكبر من ذلك.

ـ والبياتي؟

ـ البياتي فكّر في مصلحته الشخصية من أجل الشهرة، وانضم إلى أولئك الذين حاربوني لفكري الحر، وحاولوا إهمالي. لقد شاهدت بعيني مؤامرة ضدّي في بيت الجواهري خلال اجتماعهم لانتخاب الهيئة الإدارية لاتحاد الأدباء[1].

(1) ما ذكره السيّاب هنا، يؤكد شهادتي بلند الحيدري ولميعة عباس عمارة، اللتين أشرنا إليهما سابقًا حول تهميش دوره وتجاهله.



ـ هل أنت حاقد عليه؟

ـ لا. هو أخطأ بحقي وهاجمني ووقف ضدي. ومع هذا، فأنا لست حاقدًا عليه، ولا حقد لي على أحد. فقد كان يصرّح للصحافة بأنّني أتملّق الأدباء اللبنانيين ومجلة «شِعر» من أجل النشر، أنا لا أتملّق أحدًا، الأدباء اللبنانيون وجّهوا لي الدعوات وأكرموني، ودار مجلة «شِعر» طبعت لي «أُنشودة المطر»من دون أن أطلب منهم ذلك. ومع هذا كلّه، فأنا في النهاية أفكر بموضوعية وبلا تعصب ضد أحد. فهو من شعرائنا المعروفين، وله مكانته في أدبنا الحديث.

أكبرت في السيّاب هذه الروح العالية، وهذا التسامي الخلقي الرفيع الذي هو شيمة المبدعين الكبار ذوي القلوب الصافية التي تترفع عن الحقد، وتعلو بكبريائها عن الصغائر، وتظل دائمًا في الذرى العالية من إبداعها الخلاّق.

هذه الشهادة نقلتها إلى عبد الوهاب البياتي في جلسة خاصة في شقتي بالجزائر، حين زارها عام 1982 بدعوة من اتحاد الأدباء والكتّاب الجزائريين. وقد أدرجها «البياتي» في كتابه «تجربتي الشعرية» الذي صدر مطلع 1986 ببيروت، وقد عدّها إشادة تاريخية بمكانته الأدبية يفخر بها.

ولعل هنا، من المفيد أن أشير إلى سلسلة المذكّرات التي نشرها «البياتي» في جريدة «الشرق الأوسط» على حلقات عام 1995 تحت عنوان «قيثارة الذات» حيث ذكر في الحلقة العاشرة التي نشرت بتاريخ 1995/10/3 ما نصه «عندما كنا طلبة أنا والسيّاب، لم تحدث بيننا جفوة على الإطلاق، لكن السيّاب بعد تخرُّجه انفصل عن الحزب الشيوعي العراقي الذي كان ينتمي إليه، وأصبح يهاجم مختلف الآراء التقدمية



والأصدقاء الذين كانوا يمثّلون هذه التوجّهات. ولكن بعد صدور ديواني «أباريق مهشّمة» وبتحريض من بعض الأصدقاء، صار يهاجمني، ولكنّني لم أردّ عليه لمحبتي له وإعجابي به. ولكن أثناء تلك الحرب المؤجلة من جانبه هو، أدركت أن السيّاب ليس هو الذي يهاجمني، وإنما هناك بعض الأقزام من ذوي الاتجاهات المنحرفة وبعض الشعراء والأدباء الفاشلين الذين يحرضونه».

وكما شعر السيّاب بالحزن والندم على تلك الخصومات الأدبية والصراع من أجل الشهرة والمجد، دون جدوى، فقد انتاب البياتي كذلك في خاتمة المطاف، الشعور ذاته حين كتب في تلك الحلقة من مذكراته: «أشعر بالحزن والأسى الآن، وأنا أتذكّر تلك السنوات العجاف التي كنا نقاتل فيها طواحين الهواء، والتي تذكّرنا بدورها بعصور الشِّعر العربي وما كان يدور فيها من ضوضاء واقتتال من أجل الاستحواذ على وردة المستحيل. ولو نفضنا الغبار عن تلك السنوات، فالسيّاب كان وسيبقى شاعرًا لعب دورًا رياديًّا متميّزًا في حركة الشِّعر العربي، وكان القنطرة الموصلة ما بين الرومانسية في الأربعينات وحركة التجديد في الخمسينات. أما ما سيبقى منه فهو كثير، لأن شِعره يمتد ما بين الكلاسيكية والرومانسية والحداثة التي تشكّل ينبوعًا ثرًّا للشعراء المبتدئين وللقراء وهم يكتشفون سرّ الموت والعبقرية الخلابة. ومن لم يقرأ هذا الشِّعر يكون كمن لم يعرف سر رحلة جلجامش بحثًا عن كنوز الأعماق».

«البياتي» هنا يؤكد بشكل صريح ندمه واعترافه بعدم جدوى تلك المنافسات والخصومات الأدبية التي أضاعت كثيرًا من الوقت والجهد، ما دام الفضاء الشعري اللامتناهي يتّسع للجميع.، وأن المبدعين يكمّل بعضهم بعضًا، فهو يضيف في ذات السياق: «الشعراء المجيدون



المبدعون أشبه بأشجار الغابة، تقف كل شجرة منها إلى جانب أختها، والجميع يطعمون الجياع من ثمراتها، ويستقبلون الشمس والريح والمطر».

ومن جانب آخر، وفي سياق أجواء تلك الخصومات الأدبية في فترة الخمسينيات، كتب الشاعر «راضي مهدي السعيد»، وهو من أصدقاء السيّاب، في ذكرياته عنه، مقالة بعنوان: «في خيمة السيّاب» نشرت في مجلة «الأقلام» العراقية، عدد آب ـ اغسطس 1987، أشار فيها إلى مزاجية السيّاب وحساسيته وطبعه الحاد، قائلًا: «كانت تبدو منه تصرفات مزاجية مع أقرب أصدقائه من الشعراء المعروفين في الساحة الشعرية آنذاك، بالرغم مما جبل عليه من طيبة متناهية وتواضع كبير، ولا أعتقد أن أي واحد يستطيع أن ينكر هذه الحقيقة الآن، وهي حقيقة لا تمس إبداعه المعترف به من قبل الجميع ولا تنقص من مكانته الشعرية الرفيعة، وحتى أنا الذي كنت شبه ملازم له ملازمة دائمة منذ عام 1950، حتى سفره الأخير إلى المستشفى الأميري في الكويت، والذي لم أنقطع عنه في الفترات التي انقطع عنه أغلب الأدباء لاندفاعاته السريعة نحو هذا المدار أو ذاك، لم أنج من مزاجيته، إذ كان يعتقد بأنني صرت أحد الذين يؤمنون بأفضلية البياتي عليه..».

قد يكون ما لقيه السيّاب من عسف وجحود، مع ظروف مرضه وبؤس حاله وتجاهل لموهبته الشعرية الكبيرة، هو الذي جعل منه، كما أسلفنا، إنسانًا عصبيًّا قليل التروي في تصرفاته، متسرعًا في اتخاذ قراراته، من دون حساب للعواقب. أضف إلى ذلك، ما جبلت عليه طبيعته من حساسية مفرطة ومزاج متوتّر صار جزءًا من تكوينه النفسي والبايولوجي..



حالة السيّاب هذه علّمتني الصبر والجلد، لأنني شاهد عليها. يخطئ من يظن أن الإنسان يتعلّم الجلد والمكابدة عن طريق معاناته الشخصية فقط، كما يحدث في تجارب المتصوّفة، لأن المعاناة تجعله ضعيفًا لا يقوى على التحدي، في حين أن الحقيقة هي أننا نتعلم الجلَد من رؤيتنا لمعاناة الآخرين ومكابدتهم لآلامهم بصبر وشجاعة.

هذا كله جعل السيّاب كثير الأخطاء، كثير الندم، لأنه لم يكسب من وراء تصرفاته الخاطئة شيئًا، إن لم نقل في الواقع سببت له كثيرًا من الخسائر وأورثته أذى وضررًا بالغًا في كثير من الأحيان.

في عام 1981 التقيت «الجواهري» للمرة الثانية في الجزائر، بعد لقائي الأول به عام 1959 في مبنى اتحاد الأدباء العراقيين ببغداد، حين وقّع على هوية عضويتي في الاتحاد، كما أسلفت. كان لقاؤنا في شقة صديقي الأديب الدكتور «محمد حسين الأعرجي» الذي كان زميلي في معهد اللغة والأدب العربي بجامعة الجزائر العاصمة. كان الجواهري قد قدِم من براغ بدعوة خاصة من صديقه الأعرجي، ونزل ضيفًا عنده في شقته بمنطقة «ابن عكنون». انتهزت الجامعة فرصة وجوده، فأقامت له أمسية شعرية، قدمتُه فيها للجمهور الغفير من الطلبة والأدباء ورجال الإعلام الذين حضروا لرؤيته وسماع شِعره، ولا سيما قصائده الشهيرة التي مجّد فيها ثورة الجزائر العظيمة وشهداءها الأبطال الخالدين. لقد كانت تلك الأمسية حدثًا ثقافيًا ذا صدى كبير في العاصمة الجزائرية.

في سهرة العشاء بشقة الأعرجي، حدّثتُ الجواهري عن لقائي بالسيّاب في الكويت، وزياراتي له في المستشفى وهو يقضي أيامه الأخيرة هناك. ذكرتُ له ما قال عن الأدباء العراقيين وخصوماتهم الأدبية،



وسط الصراعات الحزبية التي عصفت بالعراق آنئذٍ، وذكرت له بالتحديد ما قاله فيه وإشادته بمكانته الشعرية.

كان الجواهري يصغي بانتباه، مطرقًا، وكأنه يسرح مع ذكريات الماضي، وهو يمسك بمسبحته الكهرمانية، ويداعب خرزاتها الملونة المشعّة. رفع رأسه وقال:

الله يرحمه. لم تكن بيني وبينه خصومة قطّ، لم أذكره بسوء، ولم أسمع أنه ذكرني بإساءة. كانت هناك نميمة أدبية، ودعاة عداوة. وحتى ما ذكرته الصحافة لم يكن إلاّ من باب التهويل والإثارة. أنا في الحقيقة، تألمت كثيرًا لما أصابه من غبن وتجاهل، فهو شاعر مقتدر من دون شك، وهو أفضل شعراء جيله. لم ينصفه أحد، لا الحكومات، ولا أصدقاؤه الأدباء. لقد كان موته خسارة للأدب العراقي، ولاشك في أن الذين ناصبوه العداء من الأدباء والأحزاب سيندمون على ذلك، لأنه شاعر أحب وطنه، وأراد في شِعره أن يخدم شعبه، ولم يكن يبحث عن جاه أو منافع شخصية كالآخرين الذين حاربوه.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل السابع

رحلة النفق الطويل

في الأيام الأخيرة لإقامته في المستشفى، بدأت صحة السيّاب بالتدهور، وأجريت له فحوص عدة، قال الأطباء إن جسمه المتهالك والضعيف جدًّا لم يستطع تحمُّل مضاعفات المرض.

حين كنا نزوره كانت تنتابنا حالة من الفزع ونحن نرى هذا التدهور السريع في صحته، فقد كان شغلنا الشاغل وهمنا اليومي منذ دخل المستشفى. كان جسمه يتضاءل تدريجًا، وتغيّرت ملامح وجهه الذي صارت تعلوه صفرة كالحة، توحي بصفرة الموت، وكان يتحرّك بصعوبة، ويتعبه الكلام كثيرًا، وأحيانًا يكتفي بالإشارة من يديه الناحلتين، أو عينيه الذابلتين اللتين انكمشتا وضعف بصره. لكنه مع هذا، كان كثير التذكّر لعائلته، وخصوصًا زوجته «إقبال»، إذ إنه كتب قبل أيام قليلة من رحيله، هذه القصيدة المؤثّرة يخاطبها فيها، والتي نشرتها «صوت الخليج» وقد تكون آخر قصائده، حيث كانت تشبه «الوصية» أو كلمة وداع أخيرة:

غـــدًا تــأتيـــن يـــا «إقبـــال».

يـــا بـعثـــي مـــن العـــدمِ



ويـــا قلـــبي الذي إن مــتُّ،

أتركـه علـى الدنيـا ليبكينـي

ويجأر بالرثاء على ضريحي،

وهـــو لا دمعُ ولا صـــوتُ

أحبينـي إذا أدرجـتُ،

فـــي كفنـــي.. أحبيني

ستبقـى ـ حين يبلـى كل وجهي،

كـــل أضـــلاعـــي

وتأكل قلبي الديدان، تشربه إلى القاع ـ

قصـائـــدُ كنت أكتبهـا،

لأجـلك فـي دواوينـي

أمـا قريته «جيكـور» التي لطالمـا ناجاها فـي قصائـده الوجدانية، فهو يفتقدهـا الآن، ويبحـث عنها، حين أدرك نهايته المحتومـة، فيناديها للمرة الأخيرة، بصوت مخنوق لن يصل إليها أبدًا:

أيـن «جيكـور»؟

جيكـور ديـوان شعـري

موعـــد بين ألـواح نعشي وقبـــري

وجيكـور خضراء، مسّ الأصيـــل

ذرى النخـل فيها بشمس حزينـــه



ودربـــي إليهـا كـومض الـبروق

وجيكـور مـن دونهـا قـام سـور

وبـوابـــة واحتـوتهـا سكينــــه

وجيكـــور مـن غلّـق الدور فيها

وجـاء ابنهـا يطـرق الباب دونه؟

ولـم تمض أيـام قليلة، حتـى انطفأ قنديل الشِّـعر المتوهّـج الذي كان يضيء سماء الشِّعر العربي بأبهى القصائد وأسماها.

في ذلك اليوم الشتائي الممطر، يوم الرابع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر الحزين عام 1964، لا بد من أن تكون قد أظلمت سماء العراق، وتكدّرت شمسه الساطعة، وخيّم فوق ربوعه حزن دامع قلّ نظيره. هذا العراق الذي ناجاه السيّاب، بأرقّ ما يمكن أن يناجي به شاعر أحب وطنه:

«الشمس أجمل في بلادي من سواها،

والظلامْ

حتى الظلام هناك أجملُ،

فهـو يحـتضن العـراقْ»

في ذلك اليوم، لا بد من أن تكون بساتين «جيكور» وصفصافها الشجي، قد ناح حزنًا عليه، وموجات من اللوعة الجريحة، غطّت صفحات مياه «بويب»، حيث لم يعد أحد بعد اليوم، يناغيه بحنان الطفولة:

«بـويـب، يـا بـويب، يـا بــويب

أجراس بـرج ضاع في قرارة البحـر».



أما الحدث الفاجع الذي خُتِمت به حياة السيّاب، وهي كلها سلسلة فجائع، فكان يوم وصول جثمانه إلى البصرة وتشييعه إلى مثواه الأخير في «مقبرة الحسن البصري» حيث بدأت السلطات الحكومية بطرد عائلته من البيت الذي أعطته له دائرة الموانئ في البصرة بعد فصله من عمله. ويذكر صديقه «علي السبتي» الذي حمل جثمانه من الكويت، أن سلطات الحدود في منطقة «صفوان» رفضت حتى تسلّم جثمانه. وكان «السبتي» يصرخ بذهول في وجه المسؤولين: يا ناس.. يا عالم، هذا شاعركم خذوه.. اسمحوا له أن يدفن في بلده.

والمؤلم أن السيّاب كتب وصيته المتواضعة في قصيدته «وصيّة محتضر» التي لم يطلب فيها أكثر من قبر متواضع في مقبرة كئيبة من مقابر العراق المترامية في كل مكان، فهو يقول:

«إن متّ يا وطني،

فقبرٌ في مقـابرك الكئيبه

أقصـى منـاي.

وإن سلمتُ فإن كوخًا في الحقولْ

هو مـا أريـد من الحيـاة».

ولعلّ من المفارقات المحزنة أن نقول إن السيّاب، على الرغم من كل مآسيه، كان أكثر حظًّا، من زملائه الشعراء الآخرين. فقد تحققت له على الأقل أمنيته في أن يجد قبرًا في وطنه. أما هم، فأين هي قبورهم؟ فقد ماتوا جميعًا في المنافي، ودفنوا هناك. الجواهري والبياتي في دمشق، ونازك في القاهرة، وبلند في لندن، أما الآخرون اللاحقون المشتّتون في



أقاصي المعمورة، فالله وحده يعرف أين يكون مثواهم، وفي أيّ مقبرة غريبة سيدفنون.

هذا هو قدر العراق، وهذا قدر النابغين المبدعين من أبنائه، في كل العهود، وكل الأزمنة، وفي ظل كل الأنظمة.

ومن مفارقات الزمن كذلك، أن الحكومة تتذكّر الشاعر السيّاب بعد سنين، وتقيم له عام 1971 في ذكرى وفاته السادسة، تمثالًا يطلّ على شط العرب، مرتديًا تلك «البذلة» الرمادية الفضفاضة ذاتها التي شاهدته فيها، حين وقف ينشد قصائده على منصّة قاعة دار المعلمين العالية، وكأنني به وهو في قبره يتمثّل بسخرية مريرة بقول الشاعر العباسي «دعبل الخزاعي»:

إنّي رأيتك بعد الموت تندبني

وفي حياتيَ ما زودتني زادي

جاءت نازك الملائكة إلى الكويت بعد مغادرتي لها عام 1969، متجهًا للدراسة في بريطانيا. فلم أدركها هناك.

عُينت نازك رئيسة لقسم اللغة العربية في جامعة الكويت، التي تأسست حديثًا. لكنها وجدت زميلها الشاعر الرائد قد رحل عن الدنيا، وخلّف تاريخًا يُروى في هذا البلد عن الألم ومعاناة المرض، وترك حكايات موجعة عن أيام الموت والغربة التي قضاها هناك، حكايات تسمعها من أفواه من شاهدوه، أو سمعوا عنه، أو تابعوا مأساة موته. ومن يدري، فربما كانت، وهي تتذكّر موت السيّاب بداء السرطان، يطوف بذهنها شريط حياتها الماضية، ومحنة إصابة والدتها الشاعرة «أم نزار» بسرطان الدماغ وذهابها إلى لندن للمعالجة، ثم موتها ودفنها هناك. وليس ببعيد



أيضًا أن يكون شريط الذكريات قد عاد بنازك إلى أيام الشباب والدراسة حين تعرفّت لأول مرة إلى بدر عام 1946، بعد تخرُّجها من دار المعلمين العالية بسنتين، وكيف اتّفقا يومها على مشروع إصدار ديوان مشترك يضم مجموعة من قصائدهما الجديدة، آملَين أن يكون ذاك الديوان «سابقة أدبية في الشِّعر العراقي ومفاجأة للأدباء والقراء» بحسبما أعلنت الصحف يومها. غير أن هذا الديوان لم ير النور.

في لقاء بلندن جمعني بصديقي الشاعر العراقي «عبد الصاحب الموسوي» (صاحب ديوان «أغاني الفجر») والمقيم حاليًا في كندا، والذي كنت أسكن معه ومع صديقنا الدكتور عبد الجبار العبيدي، في شقة واحدة في منطقة «الشرق» بالكويت، ذكر لي أن نازك، التي كانت تثق به كثيرًا كصديق للعائلة ولزوجها الدكتور «عبد الهادي محبوبة» الذي كان أستاذي في «العالية»، كانت قد مرّت في تلك الفترة بمرحلة تصوّف وتديّن شديد، وأنها أحيانًا حين تنتابها حالة مرض وحمّى صوفية تستدعيه في ساعة متأخّرة من الليل ليفسّر لها بعض الرؤى والأحلام المفزعة ونوبات الكوابيس والأشباح المتصارعة التي كانت تراها في أثناء النوم. وهذا شبيه بما كان يحدث للسيّاب، حين تنتابه حالات من الكوابيس المهلوسة، يرى من خلالها أشباح العمالقة تتصارع أمام باب غرفته في المستشفى.

كان «الموسوي» هو أيضًا من أصدقاء السيّاب قد ظل يعمل بالتدريس لسنوات في الكويت بعد مغادرتي، وكثيرًا ما كان يزور نازك وزوجها، وقد قال لي إنه بدأ يكتب عن هذه المرحلة من حياة نازك والسيّاب، وأنه ينوي إصدار كتاب عنهما. ولا أدري إن كان وفّق في ذلك، بعد أن انقطعت عني أخباره منذ سنين.



بعد وفاة السيّاب، كتبتُ حديثًا أدبيًا لإذاعة الكويت، تحدثتُ فيه عن حياته ومكانته الشعرية في العراق والعالم العربي، مركزًا في انطباعاتي الشخصية عنه خلال الأيام الأخيرة التي قضاها في المستشفى الأميري. كنت يومها أكتب أحاديث وأعدّ مسلسلات درامية للإذاعة مقتبسة من روايات عالمية، كان يقوم بإخراجها صديقي المخرج العراقي مهند الأنصاري، الذي كنت أسكن وإياه في شقّة واحدة بمنطقة «حوّلّي». وكان معنا الفنان حكمت القيسي.

بعد إذاعة الحديث، تحمّس «الأنصاري» لإخراج مسلسل إذاعي عن حياة السيّاب، واستشارني في كتابة سيناريو الحلقات الإذاعية. رحبتُ بالفكرة وعرضتها على «عبد الله خلف» رئيس القسم الثقافي في إذاعة الكويت، فاستجاب لها مشجّعًا على البدء في الكتابة.

كتبت عشر حلقات على شكل سيناريو تمثيلي موزّع على شخصيات رجالية ونسائية عدة لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بحياة السيّاب. استعنتُ بأصدقائي وبمن أعرفهم وعلى رأسهم «علي السبتي» في توثيق بعض المعلومات التاريخية، ورجعتُ إلى بعض الكتب والمصادر المتوافرة آنذاك. أكملتُ الحلقات وسلّمتها إلى عبد الله خلف، الذي سعد بها وطلب من مهند الأنصاري أن يبدأ العمل فورًا. اتّفق مهند مع بعض الفنانين المصريين العاملين هناك مثل إسلام فارس وزهرة العلا وعبد الله الطوخي، على الاشتراك في تمثيل أدوار المسلسل. ولسوء الحظ مرض «مهند» فجأة وسافر إلى العراق، فتوقّف مشروع هذا العمل الأدبي التوثيقي الذي تُرِكت مسوّدات حلقاته في أرشيف الإذاعة الكويتية، ولم تفلح محاولات تجديد العمل فيه مع مخرج آخر.



في عام 1966 زار الكويت الشاعر العراقي «حسين مردان»، بدعوة من صديقه «علي السبتي» الذي حجز له إقامة في «فندق دمشق» لمدة أسبوع، وكنت أزوره يوميًّا هناك. ثم أقام له «السبتي» دعوة عشاء في بيته، دُعيت إليها مع بعض الأصدقاء العراقيين المقيمين في الكويت آنذاك، أذكر منهم الصحفي صالح سلمان (الذي غيّر اسمه لأسباب أمنية، وصار يكتب في جريدة «صوت الخليج» باسم «صالح حمد»، وأستاذي في الجامعة الأديب والمترجم «أمجد حسين» (الذي ترجم رائعة الروسي، صاحب نوبل، شولوخوف «الدون الهادئ» مع علي الشوك وغانم حمدون). تذكّرنا في تلك السهرة السيّاب ومأساة موته وغربته وما صاحب ذلك من المتاعب التي تحمّلها «علي السبتي» من بدايتها في البصرة حتى وصوله مريضًا إلى مطار الكويت، ثم علاجه في المستشفى وعودة جثمانه مرة أخرى إلى البصرة لكي يُدفن هناك. جدّدنا ذكراه وقرأنا بعض قصائده، وخصوصًا تلك التي كتبها في أيامه الأخيرة ونشرتها صحيفة «صوت الخليج». فجأة نهض «علي السبتي» وقال:

ـ الآن سأريكم شيئًا مهمًّا، ثم دلف داخل المنزل، وبعد دقائق عاد وهو يحمل مظروفًا كبيرًا وضعه على الطاولة قائلًا: جمعت في هذا المظروف قصائد السيّاب التي نشرتها له في «صوت الخليج» وهي بخط يده، مع بعض الأوراق والرسائل التي تخصه. قلنا بدهشة: هذه أوراق تاريخية مهمة، واندفع حسين مردان مادًّا يده لأخذ المظروف قائلًا للسبتي: أعطني هذه الأوراق، وسأكتب عنها في صحف بغداد حين عودتي، وسوف أشير إليها في ديواني (طراز خاص) المعد للطبع.

لكن علي السبتي رفض بشدة قائلًا:



هذا مستحيل، لأنني أعدّ كتابًا خاصًّا عن السيّاب، وهذه الأوراق هي مادتي التوثيقية. باركنا الفكرة وقلنا له إننا مستعدون للتّعاون.. قال باهتمام: علينا أن ننهض جميعًا ونتعاون لتدوين إرث السيّاب، إنها مسؤولية أصدقائه الأدباء. ثم التفت اليّ وكأنه تذكّر شيئًا:

ـ ولكن ما مصير الحلقات الإذاعية التي كتبتها عن السيّاب؟

وهنا كان عليّ أن أعيد قصة المسلسل الإذاعي من بدايتها على أصدقاء الجلسة، وقد فعلت.

لم أعرف حتى هذه اللحظة (وأنا مقيم في بريطانيا منذ قرابة ربع قرن من الزمن، وغادرت الكويت قبل أكثر من أربعين عامًا). لم أعرف إن كان «علي السبتي» قد أنجز كتابه عن السيّاب، أو أسعفته الأوضاع في كتابة جزء من ذكرياته معه. وإذا كان قد فعل، فلا شك في أنه سيكون من أصدق وأشمل ما كتب عن الراحل الكبير، نظرًا إلى أمانة «علي السبتي» ومعايشته الفعلية لتلك الأيام المأساوية التي رافقت مرضه ورحيله الفاجع المبكّر.

لقد تعاطفت مع السيّاب في أثناء حياته وبعد موته. كان عالم السيّاب يشكّل لي عالمًا منكسرًا مغرقًا في القسوة والوحشة والعزلة، يشعرني بالخوف وبؤس المصير الإنساني.

بعد وفاته، عشتُ ليالي مضطربة، ملأى بالفزع والكوابيس، وخصوصًا حين أستعيد ما كان يردّده، حين تنتابه موجة من الحمى والهلوسة، من أنه كان يرى أحيانًا في الليل أشباحًا وعمالقة من الجنّ تتصارع عند باب غرفته في المستشفى، وهو غير قادر على الدفاع عن نفسه، هزيل الجسم متهالك الأعضاء، فيزداد خوفه وتنهار قواه.



ازداد تعاطفي، وأنا أنظر إلى حياته القصيرة البائسة التي لا حياة فيها، وإلى ضياع شبابه هدرًا، وقلة حيلته بين الناس، ناهيك عن ظلم الدولة والمجتمع، وتجاهلهم لمكانته الأدبية الرفيعة. كلها عوامل تحزّ في النفس إزاء هذا المصير المحزن الذي يلاقيه شاعر مبدع في وطنه، لم يظفر بطائل ولم يأخذ شيئًا من الدنيا، ومع هذا كثر حسّاده ومناوئوه.

إنها ليست مأساة السيّاب وحده، بل مأساة كل المبدعين والفنانين ورجال الفكر الأحرار الذين ظلمتهم أوطانهم وحاربهم أعداء الحرية.



خاتمة

والآن.. رحل السيّاب، وهو لم يتجاوز عامه الثامن والثلاثين، في ريعان شبابه، وأوج توهجه الإبداعي. إنه عمر «ديلان توماس» و«شيلر» و«بايرون» و«بوشكين» و«لوركا» و«جون كيتس» و«رامبو» و«مايكوفسكي» وغيرهم من العباقرة المبدعين الكبار في العالم الذين اختطفهم الموت مبكرًا، وهم في قمة عبقريتهم وتدفقهم الشعري.

وقد يسأل سائل: ماذا بقي من السيّاب؟ ماذا ترك وراءه؟ الواقع يقول: إن ما بقي منه كثير كثير.. بقيت ريادته التاريخية لحركة «الشِّعر الحر» التي تزعمها في العراق والعالم العربي، وأرسى من خلالها دعائم الحداثة الشعرية، إنه فتح آفاقًا جديدة أمام الأجيال اللاحقة من الشعراء، ليجددوا في تجاربهم الشعرية، ويبتكروا أشكالًا معاصرة ومضامين مبتكرة، ورؤى خلاّقة في ميادين الفن الشعري الواسعة. لقد ترك للأجيال القادمة، تراثًا شعريًّا غنيًّا هو حصيلة مرحلة عصيبة واستثنائية في تاريخ الأدب العراقي والعربي المعاصر. وكما قال «البياتي»: «إن السيّاب يشكل جسرًا يربط بين الكلاسيكية والرومانسية والحداثة التي تشكل ينبوعًا ثرًّا للشعراء والمبتدئين والقراء».

ولنا أن نتصوّر الآن مدى ما سيكون عليه عطاؤه الشعري الغزير، لو امتد به الأجل حتى اليوم، في وقت عاش بعده زميلاه الرائدان الآخران



عبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري، ضعف عمره تقريبًا، ولم يبلغا شأوه كمًّا ونوعًا. نقول هذا، على الرغم من اختلاف التجارب الشعرية لكل منهم، وتباين نظرتهم للحياة والأدب، من دون قصد المفاضلة بينهم أو التقليل من الدور الريادي والإنجاز الشعري لكل منهم.

ولنا أن نتساءل أيضًا: ترى لو عاش السيّاب، حتى يومنا هذا، أسوة بأصدقائه الذين مازالوا أحياء يُرزقون، مثل الشاعر علي السبتي، وألفريد سمعان، وراضي مهدي السعيد، ولميعة عباس عمارة، والذين قرأوا بعضًا من هذه المذكّرات في «القدس العربي» (يونيو ـ حزيران 2013) والتي تركت لديهم انطباعًا حسنًا، كما علمتُ، على الرغم من أنها أثارت لواعج أحزانهم، حين ذكّرتهم بسالف أيامهم مع صديقهم الراحل، أقول، لو أن السيّاب، أخطأه المرض اللعين، وعاش بيننا حتى اليوم، تُرى كيف ستكون ظاهرة الحداثة الشعرية؟ وحركة الشِّعر الحر على الخصوص؟ ومن يدري، فقد يكون السيّاب، ساعتها غير السيّاب الذي عرفناه، وقد تكون حياته (مجردة من تراجيدية موته وملابساتها المأساوية) في عيوننا وعيون التاريخ صورة أخرى، يتداخل فيها الخيال والواقع وتتضارب فيها الرؤى والأحكام، يضيق فيها التصوّر، وتتّسع فيها التّكهنات.

لندن ـ مارس 2014



دواوين السيّاب

- أزهار ذابلة صدر سنة 1947.
- أساطير صدر سنة 1950.
- المومس العمياء صدر سنة 1954.
- الأسلحة والأطفال صدر سنة 1955.
- حفار القبور.
- أنشودة المطر، صدر سنة 1960 عن دار مجلة «شِعر».
- المعبد الغريق، صدر سنة 1962 عن دار العلم للملايين.
- منزل الأقنان، صدر سنة 1963 عن دار العلم للملايين.
- شناشيل ابنة الجلبي، صدر سنة 1964 عن دار الطليعة.
- إقبال، صدر سنة 1965 عن دار الطليعة.
- قيثارة الريح، صدر سنة 1970 عن وزارة الإعلام العراقية.





مكتبة
الفكر الجديد

صدر للمؤلف

- توابيت عائمة (شِعر)، لندن.

- جمرة على حافة القلب (شِعر)، القاهرة.

- مدن وقصائد (شِعر)، بغداد.

- كلمات طيّبة (شِعر)، بغداد (بالاشتراك مع سامي مهدي، وسلمان الجبوري، وهادي العلوي، ومحمود الريفي، وجواد الحطاب وموسى النقدي).

- ملامح من الشِّعر الإنكليزي المعاصر (ترجمة من الإنكليزية)، بغداد.

- كتابات في زمن الخوف (دراسات نقدية)، قيد الطبع.

- العناصر الدرامية في الشعر المعاصر (ترجمة من الإنكليزية)، قيد الطبع.

The Poetry of Kushajim and its relation to the poetic -

Literature of the Hamdanid Court in the 4th century.

شِعر كشاجم وعلاقته بالحركة الشعرية في بلاط سيف الدولة الحمداني في القرن الرابع الهجري (بالإنكليزية)، قيد الطبع.





الكتاب

لعلها مصادفة أدبية طيّبة، أن يتزامن صدور هذا الكتاب عن بدر شاكر السيّاب، بعد المبادرة التي أطلقها اتحاد الأدباء العرب في إمارة أبو ظبي في أن يكون عام 2014، عام الإحتفاء بمرور خمسين عامًا على ذكرى رحيل هذا الشاعر الكبير.

إن المكانة الأدبية الرفيعة التي يحتلها «السيّاب»، عربيًا وعالميًا، تدعونا إلى أن نستعيد الدور الريادي الذي لعبه في تطوير الحركة الشعرية العربية، وفتح الآفاق الواسعة أمام الشعر العربي الحديث ليحتل مكانه المرموق على خارطة الشعر العالمي.

فما أحرانا، ونحن نستعيد هذه الحقائق الأدبية المعروفة في تاريخنا الشعري والنقدي القديم، أن نعطي اليوم، لشعرنا حقَّه، وأن نسلّمه إلى من يعرف جوهره وحقيقة صناعته، ليكشف لنا عن أسراره ومكامن الجمال والإبداع فيه.

وبهذه المناسبة، علينا أن نعيد اكتشاف مكامن الجمال والإبداع في شعر السيّاب، وندعو النقاد المنصرفين لشؤون الشعر وحده، إلى إعادة دراسة هذا الشاعر الرائد، وإبراز دوره الطليعي في حركة الشعر العربي المعاصر.


ISBN 978-614-418-269-7

